فلاسفة في الزنزانة 25

رسائل من وراء الموت

رواية

فلاسفة في الزنزانة 25

رسائل من وراء الموت

أنس الدغيم

إلى الأُمِّ التي أخبَروها باستشهادِ ابنِها

تحتَ التعذيبِ في سُجونِ الأسد

فقالت: (الحمدُ لله .. ما عاد يضربوه بعد اليوم).

أُهدي هذه الرِّواية

عندما فتحتُ عيني على هذا العالَم،
رأيتُ الطّائرَعلى غصنٍ لا داخلَ قفَص،
وأجملُ ما سمعَتْ أُذنايَ أوَّلَ ما سمِعَت:
«متى استعبدتمُ النّاس؟»

الشَّرّاقة

الشرّاقة: هذه الفتحةُ السّقفيّةُ اللعينةُ التي كان يقفُ عليها الموتُ شخصيًّا، وينظرُ إلينا من فوّهةِ بندقيّة.

حتّى بُقَعُ الزّيتِ التي تلطّخَ بها جنادُ البندقيّة، كنّا نشتمُّ رائحتَها.

أجَل، إلى هذا الحَدّ وأكثر.

صوتُ تلقيم البندقيّة كان يتركُ في رؤوسنا صَكّةً أبشعَ من صوتِ السَّجّان نَفسِه، وأعمقَ ألَمًا.

صوتٌ كان يصطدم بالرّؤوس، فتقفُ عنده مدّةً مِن خارجِ الزَّمن، لا تفكّرُ ولا تحاولُ أن تفكّرَ فيما بعدَه.

أذكرُ تمامًا ذلكَ العسكريَّ الذي كان ينظرُ إلينا من الشرّاقة، كان هزيلَ الجسم قصيرَ القامة،

وكان ظلُّهُ أطولَ من قامته بعشرِ كرابيج.

كان يقف بيننا وبين الشّمس، وكان يرتطم شعاعُ الشّمسِ ببزّته العسكريّة المتّسخة التي لم يغسلها منذ أكثر من عشرينَ نَوبةِ حراسةٍ أو وجبةِ تعذيب.

كان يتشظّى شعاعُ الشمس المرتطمُ به إلى عشرين لونًا، كلُّ لونٍ أشدُّ سوادًا من أخيه.

كان يسُنُّ بوطَه العسكريّ ليوم غد، بعد أن يقوم (بتعليم) كلّ من تحرّكَ أو التفتَ برأسه أو أخذَ نفَسًا عميقًا أو تمتمَ بآيةٍ من القرآن، أو تقلّب على جنبه وهو نائم.

حتى الهواء الذي كان ينفُذ إلينا من خلالِ هذه الشرّاقة كانت ذرّاتُه محمّلةً بميكروبات الحقد التي تلفظها أنفاسُه بين الحين والآخر.

لم يكن في المهجع ما يوحي بالحياة.. الجدران والوجوهُ والبطاطينُ الباليةُ والدشكات المهترئة التي تتداخلُ أطرافُها مع أحذيَتنا الأكثر اهتراءً، مع حركات أجسادنا المثقلةِ بأوجاعِ التعذيب وهموم الغَدِ القادم بأسوأ ممّا ذهب به يومُنا الحاضر.

مع تمتماتِ أفواهنا التي تغالبُ الألمَ لتقول شيئًا ما لا على التَّعيين.

في هذه الأثناء، كان يشقُّ السكونَ صوتٌ كالفأس، قادمٌ من أعلى.. من الشّرّاقة

(علِّم فُلانًا) أي احفظه ليوم غد.

كان المعنيُّ بالأمر هو رئيس المهجع (وكيل القاووش) الذي لم يكن أحسنَ حظًّا من غيره من السّجناء، بل غالبًا ما يكون هو الفدائيَّ الذي سيحتملُ الضربَ والرّكْلَ ريثما يُحضر لنا الطعامَ من خارج المهجع.

محمود من حماة، حرّك يدَه مِن على بطنه، فعلّمه العسكريُّ من الشّراقة، وفي اليوم الثاني جلدَه (200) كرباج.

وأحمد من حمص، مصاب بالإنفلونزا، تضايق الحارسُ من عطاسه المتكرّرِ لثلاث مرّاتٍ متوالية، فنادى على منظّم دور دخول الحَمّام: علِّمْه لي، وجلده بعد ثلاثة أيّام.

كلُّ ما في المهجع يوحي بالموت، حتى أصابع أقدامنا التي كان يمرُّ عليها البردُ بلا رحمة.

كانت تتحرّك حركاتٍ منفصلةً عن إرادتنا وحتّى عن خيالاتنا. كنتُ أعضّ أصابع يدي ولا أعرف أنّي أعضّها، وألعبُ بشعر رأسي ولا أعرفُ أنّي ألعب وأفعلُ كثيرًا ما، ولا أعرفُ أنّي فعلت.

كان كلُّ شيءٍ في زنزانته الخاصّة به، القلبُ المسجونُ عن أحبابه، والجسمُ المسجون عن حيويّته، والعقلُ المسجون في غُربته، والفكرُ المسجون بين القضبان والموت، لا يتجاوزُ أحدَهما إلا ليصطدم بالآخَر.

كان ممّا يواسيك، تمتماتُ أحدِهم وهو يُراجع آياتِ القرآن التي حفظها من غيره.

ويجاهدُ نفسَه ووقتَه لإكمال الحفظ، وحفْرُ أحدِهم لاسمه على جدار السِّجنِ الذي سيغادرُه يومًا، وحديثُ أحدهم عن ولده الذي سيخرجُ ليراه وقد حصل على شهادته الجامعيّة، أو حديث

أحدهم عن خطيبته التي ستنتظره بثيابِ العرسِ على مدخل القرية.

من غرفة الذّاتيّة إلى آخر السّاحة الكبيرة في السّجن نصبوا أكثر من (40) مشنقة.

كلّ من تراه يضحك هنا، أو يحكي فكاهةً، أو يمازحُ أصدقاءَه في السّجن، كان قد حجز لنفسه واحدةً من هذه المشانق في مخيّلته، لا يدري متى يكون هو المُعَلَّقَ على إحداها.

إنّني أحسُّ على وجهي بألَمِ كُلِّ صفعةٍ
تُوَجَّه إلى كُلِّ مظلومٍ في هذه الدُّنيا.
جيفارا

الصَّفعَةُ الأُولى

في أثناءِ النّوم، كانت رؤوسُنا تُمسِكُ بالأحلام التي كانت تأخذنا خارجَ السّجن. ومع الأيام، صارت كلُّ أحلامنا مسجونةً مثلنا، تصطدم بقضبان المهجع، لنستيقظ على صكّةِ اصطدامها

وعلى صوت السجّان الأجشّ وهو يقول: قوموا يا «بجَم». وهي كلمةٌ لم نعُد نشعر بقسوتها، فأقصى ما تعنيه هذه الكلمة: الحمير. وهي كلمةٌ عاديّةٌ في مكانٍ مَوبوءٍ بكلِّ هذه القذارات النفسيّة.

أمّا صوَرُكم فقد وقفَتْ في رأسي عند آخِر لحظاتي معكم:

أنتَ كنت تتمشّى في حوش الدار، تنتظر أذانَ صلاةِ الفجر لتذهب إلى المسجد القريب من بيتنا، بعد أن فتحْتَ بابَ قُنِّ الدّجاج، لتخرج الدجاجاتُ وتسرح كالعادة.

وأمّي كانت تجهّز العجين لتخبزَ لنا على التنّور، تساعدُها أختي مريم.

وأخي أحمد كان يقرأ القرآن. كان حسَنَ الصوت، **ومع القرآن يصبحُ صوتُه أجمَل، وقرآنُ الفجرِ مشهود، كان ينزلُ على القلبِ كحّباتٍ من ماءٍ وسكينة.**

وصوتُ جارنا (أبو حسن)، كان لا يخفى على الجيران، وهو يوقِظُ أبناءَه وبناته للاستعداد للذهاب إلى الأرض، لقطاف الزيتون.. هذا آخِرُ عهدي بكم وبحارتي وبفجرها الجميل، قبل أن يقتحمَ زوّارُ الليل دارَنا.

وأنا أكتبُ إليكَ هذه الرسالة، كان يجلسُ بجانبي صديقي (براء). كان طالبًا في كلية الهندسة الكهربائية حين اعتقله رجالُ المخابرات وذهبوا به إلى حماة، ثمّ جاؤوا به إلى سجن تدمر.

لن أحدّثك الآن بكلِّ قصّته، ولكن أريد أن أقول لك: إنّه قال لي في أوّل لقاءٍ بيننا وقد حدّثني عن لحظات اعتقاله الأولى، ثمّ عن التحقيق معه في فرع الأمن العسكريّ بحماة، قال لي:

«الصّفعةُ الأولى كافيةٌ لتعطيَ فكرةً عن كلِّ ما سيأتي، فقد كانت كفيلةً لتُديرَ رأسي دورةً كاملة»

قلت له: وحياتَك أيضًا!

قال: أجل، فإنّ رائحةَ ديزل السّيّارة وهي في طريقها إلى سجن تدمر، لن تُمسَحَ من الذاكرة.

يقول لي دائمًا: إنّ أسوأَ لحظةٍ في السِّجن، هي عندما استيقظُ من النّوم، أيْ إنّني ما زلتُ هُنا.

لا علينا، فقد كان الفطورُ اليوم خبزًا وزيتونًا ولبنة. رغيفٌ واحدٌ لأربعة، وكان نصيبي خمس حبّاتٍ من الزيتون وملعقة لبنة

تكفي لدهن ربع الرغيف. يعني هناك خمس حبّات زيتون من ترَفِ الطعام. الحمدُ لله على نِعَم الله.

أكتبُ إليك الآن وقرقعةُ البواريد تصكُّ الآذان، من بشاعةِ صوتها صِرنا نشعرُ وكأنّها تتمشّى على جدار المهجع من الخارج. بنصفِ عَينٍ واحدة، تستطيع أن تختلسَ النّظرَ من شقٍّ في جدار الغرفة الثانية من غرفتَي المهجع.

لا يسوقك إلى هذا أكثر من الفضول عديم الجدوى، فبالتأكيد لن ترى نهرَ بردى، ولا بابَ الجامع الأمويّ الذي ينتهي إليه سوق الحميديّة، ولستَ على قمّةِ قاسيون حتّى ترى دمشقَ تحتَ عينَيكَ كصحنٍ جُمعتْ فيه حبّاتُ الماسِ إلى الذهب.

سترى باحةَ المهاجع الرئيسيّة التي سيُعدَم فيها بعد قليل (13) شابًّا كأشجارِ الصّنوبر، حوكموا وحُكِم عليهم بالإعدام، بتهمة تَوهين الشعور القوميّ والنَّيلِ من هَيبةِ الوطن.

أمّا (أحمد) الذي كان يدرسُ الطِّبَّ في جامعة دمشق، وأُحضِر إلى هذه المشرحةِ الكبيرة، فَقَدْ فَقَدَ عينَه اليُمنى منذ يومين بضربةِ عصًا حديدية (بوريّة) من يَدِ خنزير. كان يواسي نفسَه ويقول: عينٌ واحدة زيادةٌ على هذا العالَم النَّجِس.

كذلك لا علَينا..

غرفةُ مهجعِنا لا تسكنُها الجرادين إلّا مضطَرّةً، ورائحةُ دورةِ المياه التي تشاركنا حياتَنا بكلّ ما في هذه الكلمة من معنىً لا تفارقُ أنوفَنا.

ولكنَّ الاعتيادَ يجعلُ كلَّ سيّءٍ عاديًّا، ما دامت رائحةُ الظُّلمِ هي التي تُزكِمُ الأرواحَ هنا.

(عصام) المصابُ بالرّبو، كان يقتربُ من الباب ويدسُّ أنفَه في الفتحةِ المدوّرَة التي تركها القفلُ المخلوع. يدسُّ أنفَه ليستنشقَ ما يستطيع من الهواء النظيف، ولكنْ غالبًا ما كان يأتي هذا الهواءُ مُحَمّلًا بأنفاسِ الحُرّاسِ التي لا تُطاق. كان يأخذُ نفَسًا عميقًا وكأنّه يريد أن يخزّن هواءً لوقتٍ أطول، لا يستطيع فيه الوصولَ إلى الباب.

سمعته وهو يسحبُ الهواءَ من خارجِ الباب، يُتَمتمُ بكلمات:

ـ لا غرفةُ التوقيفِ باقيةٌ ولا زَرَدُ السّلاسلْ

متى استعبدتمُ النَّاسَ
وقد ولَدَتهم أمّهاتُهم أحرارا؟

عمر بن الخطّاب رضي الله عنه

لوحُ صابون

كان هذا اليوم استثنائيًّا، تمّ حِرمانُنا مِن وجبَةِ الفطور ، والذي لم يكن فطورًا بالتأكيد، ولكنَّ مُجرّدَ الحرمان يُشعِرُكَ بالجوعِ أكثر. لقد أُعدم أربعة شباب في الباحة الرئيسيّة، كانوا كأشجارِ الحَور، ولكنّ الحَطّابَ كان كمجرورِ الصّرفِ الصِّحّيّ الذي لا يُقيمُ وزنًا لكلِّ ما هو بشريّ.

كانت حِبالُ المشانقِ تتدلّى إلى أعناقنا في المهاجع. كانت تلامسُ حناجرَنا وكأنّها تتحسّسُ آخِرَ ما بقي فيها من مصطلحاتِ الحرّيّة أو الإنسانيّة.. هكذا أحسسنا.

مصطفى المتفائل دائمًا، كان يُسنِدُ ظهرَه -المجلود أخيرًا مئةً وعشرين كرباجًا- إلى جدار المهجع، ويغنّي بصوته المبحوح الجميل أبياتًا كان قد حفظَها من سجينٍ شهيد:

وأحمِــلُ لَيــلًا علــى كاهِلي
وأُشرِقُ شَمسًــا وأسمو هِلالا
وأصنعُ مِن لَســعاتِ السّياطِ
سِــهامًا ومِــن صرَخاتي نِبالا

لأنّ الطريــقَ طويــلٌ طويلٌ
جعَلْتُ الأمانــي طِوالًا طِوالا

سألتُه: وهل الطريقُ طويل؟
أجاب: بالتأكيد، ولكنَّ الغاياتِ أطوَل.
ـ هل تُسَلّي نفسَك بهذه المثاليّة؟
ـ الغاياتُ ليست للتسلية، لأنّها من أعمالِ القلب، والقلبُ لا يتسلّى.
ـ إذنْ فإنّك تُنسي نفسَكَ آخِرَ وجباتِ التعذيب التي تشاركنا فيها أنا وأنت.
ـ على العكسِ من ذلك يا صديقي، فالطّموحُ والإصرارُ مدفوعانِ بهذه الذِّكرى الموجِعة، فلماذا أنسى؟

إنّ كلَّ ضربةِ كرباج تجعلني أكثرَ إصرارًا، و كلَّ رَكْلةٍ تفتحُ عينيَّ على المدى أكثَر، وكلَّ قطرةِ دمٍ تنزفُ منّي تحت سياطهم تجعلُ قلبي أطولَ عُمْرًا ورُمْحًا. إنّ الأظافرَ التي لا تتكسّرُ مَرّةً ومَرَّتين لن تقوى على التَّجَذُّرِ أكثَرَ في التراب.

ـ أوافقُك تمامًا، وأتفهَّمُ قهرَك، ولكن ألا ترى معي أنّ هذه الأحاسيسَ تُتعبُ القلبَ في سِجنِه أكثر ممّا يُتعِبُه السِّجنُ ذاتُه.
ـ التّعبُ هو التّعب، ربّما يتجزّأُ في كلِّ مكانٍ خَلا هذا المكان.

علينا أن نتشبَّثَ بكلِّ تفاصيل هذا القهر، وأنْ لا تتسرّبَ واحدةٌ منها خارجَ دائرةِ هذه الذِّكرى، وأنْ نحفظَها عن ظَهرِ غَضَب.

سنحتاج إليها يومًا ما، في تحويلِ جدارِ هذا السِّجنِ إلى مَشجَبٍ تتعلّقُ عليه جُثثُ السّجّانين.

ولو كان بإمكاني أنْ أحوّل هذا الجدارَ إلى دفترٍ لأوثّقَ عليه كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ لفعلت.

ولكنْ كلُّ ما نستطيعه الآن هو الكتابة بالأظافر على ألواح الصّابون ريثما نحفظ ما نكتب.

ـ لماذا عليهم أن يجعلوا مِن أعوامِك الثلاثين ثلاثينَ قنبلة؟

ولماذا عليهم أن يجعلوا من أعوامي الخمسةَ والعشرين خمسةً وعشرينَ إصبع ديناميت؟

ـ بَلْ قُلْ: لماذا علينا أن نترك أصابعَ الديناميت والقنابل هذه وراءَنا عندما نخرجُ من هنا؟

نحنُ أَولى بها، علينا أنْ نحملَها في جيوبِنا وقلوبنا لِساعَة الصّفر.

ـ رجعْنا؟

ـ يجب علينا أن لا نُغادرَ حتى لا نضطرَّ إلى الرّجوع، وأن لا نتركَ مشاعرَنا هذه لحظةً واحدةً، لكي لا تبردَ وتموت.

ـ وماذا إذا كانت ساعتُنا الصِّفر على حِبال المشانق؟

ـ قُبورُنا أَولى بها من هذا المكان الذي نموتُ فيه ببطء.

ـ ليتني أستطيعُ أنْ أفهمَك.

ـ أنت تفهمني جيّدًا، ولكنّك بحاجةٍ لأنْ تفهمَ قلبَكَ أكثر، فكلُّ قلوبنا هنا واحدةٌ في الألَم والوجعِ والأملِ والغاية، ولكنْ مِنّا من يعصِرُ قلبَه ليستخرجَ كلَّ ما فيه، ومِنّا من يُسكِتُ قلبَه على كلِّ الوجعِ الذي فيه، ومِنّا من يتناسى قلبَه كلَّ اليوم أو بعضَ اليَوم، ولا يحاولُ أن يختلسَ النّظرَ إليهِ اختلاسًا لكي لا يرى سِجنًا آخَرَ، وجُبًّا آخَر.

ـ كلُّنا نرى قلوبَنا يا مصطفى، ولكنّنا نهربُ منها خوفًا علينا وعليها.

فالسّجنُ يجعلُ حُلولَكَ كلَّها مستهلَكة، السّجنُ قادرٌ على قَتلِ الأفكارِ الثابتةِ، فما بالُك بالأفكار العارِضة؟

لا أحدَ هاهنا ينسى، ولكنّنا جميعنا نتناسى للخروج من اليوم بأقلّ ما يمكن من السكتاتِ القلبيّة والذّبحات الصدريّة.

السِّجنُ قادرٌ على سَحْقِ الآمال على أعواد المشانق، وإعدام الأُمنيات تحت بساطيرِ العسكر، والإجهاز على بقايا الطموحِ في الدولاب وتحت الكرابيج.

تحتاجُ إلى واحدٍ بعزم الأنبياء أولي العزم ليتشبّثَ بأجزاء من أمله وطموحه تحت نِيرِ هذا القهرِ ونارِه.

آهاتُ أحمد الشّامي _ كما ندعوه_ قطعتْ علينا حديثَنا، ففي الصباح ضربَه الخنزيرُ بأخمص البارودة الروسيّة على عُنقه ضربةً قويّةً سمعنا صوتَها في الطرف الثاني من الباحة.

وأقول الخنزير بأل التعريف، لأنّ هذا هو لقبُه عند السّجناء، هو مساعدٌ برتبةِ مجرم، ليس في قلبه للرحمةِ مغزُّ إبرة. يشبه الخنزيرَ في كلِّ شيءٍ إلّا أنّه يمشي على اثنتين والخنزيرُ على أربع.

لم يستطع طبيبُ المهجع قاسم أنْ يقدِّم له شيئًا أكثر من كمّادات باردة كان يضعها له على عنقه، فبمجرّد إخبار طبيب السّجن بذلك، أو طلب الدّواء منه، فنحنُ أمام عقوبةٍ لا نعرف من يكون الضحيّةَ فيها، ولربّما كان أحمد ذاته، لربّما كان أحمدُ الضحيّةُ الضحيّةَ ذاتَها.

نظرَ إليّ مصطفى وقال:

هل سيكتبُ التّاريخُ كلَّ تفاصيلنا أو شيئًا منها؟

هل سيكتبُ كُتّابُ أدَبِ السجون شيئًا من حديثي معك؟

هل سيوثِّقُ الرُّواةُ آهاتِ أحمد الشّامي؟

كلّما فكّرتُ في أجوبةٍ لهذه الأسئلة الصغيرة الكبيرة، قلت في نفسي:

ما هذا التاريخُ الذي يكون لَوحُ الصابونِ أصدقَ منه؟!

إنّ الإنسان لا يعجز عن احتمال الشَّقاءِ الدائم ،
ولكنّه يعجز عن احتمال السَّعادةِ المسلوبة.

المنفلوطي

الهُدهُد

استيقظتُ اليومَ قبلَ أذان الفجر على خربشةٍ من جهة طبيب المهجع قاسم.

وقاسم شابٌّ ذو خُلق، كان يجب في مثل هذا اليوم أن يكون مرتديًا المريول الأبيض في إحدى مستشفيات العاصمة دمشق التي وُلِدَ فيها ودرس في جامعتها بكلّيةِ الطِّبِّ حتى السّنة الخامسة، موعدِ القَبض عليه واقتياده إلى سجن تدمر على يد أصحاب القلوب السوداء.

هذه حقيقةُ البياضِ في مواجهةِ السّوادِ في بلدي، عادةً ما تنتهي بالأوّل إلى حيثُ نحن الآن.

سألته: ما هذه الخربشة يا حكيم؟

ـ أَعُدُّ حبّات الباراسيتامول المتبقّية لَدَيّ.

ـ ولماذا تعدُّها الآن؟

ـ قبلَ التفقّد الصباحي، وفهمُكَ كافٍ.

ـ هل تراني فضوليًّا؟

ضحكَ قاسم وقال:

ـ لا أبدًا، فأنا نفْسي سألتُني هذا السؤال وأنا أعدُّها، وأجبتُ عن سؤالي بتنهيدةٍ وحسْب.

على رؤوسنا ألّا تُؤلِمَنا كثيرًا، حتّى لا تنفد حبّات الباراسيتامول نهائيًا.

قالها قاسم وهو يضحك.

ثمّ قال: عندما كنتُ أفكّرُ في موضوعٍ يستحقّ التفكير، وأحيانًا لا يستحقّ، وأهتمُّ لكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تجري من حولنا، إنْ كانت في الصّينِ أو في باب الجابية، كان بعض أصدقائي يقولون لي: «لا توجّع راسَك».

وكنتُ أجيبُهم: الرأس الذي لا يؤلم صاحبَه، قطعُهُ أَولى. كنتُ أقصدُ أنّ الرأسَ الذي لا يهتمُّ بغيره من البشر المقهورين في الشّرق والغرب لا داعيَ له.

ولكنّني اليوم غيّرتُ قناعتي، فعلى رؤوسنا أنْ تُتَمْسِحَ ولا تتألّم، فكلُّ مستحقّاتِنا ثلاثون حبّة باراسيتامول شهريًّا، لمهجعٍ فيه ستّةٌ وخمسون سجينًا.

ضحكَ قاسمُ وضحكتُ معه..

{إنّه من سليمانَ وإنّه بسمِ اللهِ الرحمن الرحيم}، آيةٌ هامسةٌ في جُنحِ الليل، تناهت إلينا من فَم صديقي حمّود، كان يقرؤها وهو مستغرقٌ في كلِّ حرفٍ منها، هَكذا أحسسنا ونحن نسمعها منه.

ماذا لو لم يأتِ هُدهدُ سليمان بهذا النّبأ العظيم؟.. سأل الحكيم قاسم وهو يضبضب حبّات الباراسيتامول في كيس نايلون شبه مهترئ.

أجاب حمّود: **كُنَّا لن نسمعَ بكلِّ هذا الجَمال. ولن نقرأَ عن قلوبٍ انقادتْ من ذروةِ العنفوانِ إلى أعتاب الانكسار بجِبال الهداية. ولَمَا عرَفنا أنّ الهدهدَ الذي غابَ عن مجلسِ سليمان، كان يحضرُ مجلسًا آخَرَ سيكونُ فاتحةً لتاريخٍ جديدٍ يغيّرُ جغرافيا نفوسٍ ونفوس.**

حمّود الفيلسوف كما نسمّيه، كان يدرسُ الفلسفةَ في جامعةِ دمشق، وهو من عائلةٍ متصوّفة مِن إحدى قرى ريفِ إدلب، وهو دائمًا يفلسفُ الأفكارَ بصوفيّةٍ رقيقةٍ لا تجرحُ ولا تشطح.

يحبُّه كلُّ من في المهجع، فهو يؤنسُنا بأفكاره وقراءاته وأحاديثه عن الحُبِّ وفلسفةِ الجمال.

يقول: بالحديث عن الحُبِّ نقطعُ وحشةَ هذا الجُبّ، ونعبرُ قسوةَ هذه الأيّامِ والليالي بِجَمالِ نفوسِنا وبالتّرويحِ عنها بأحاديث السُّمّار.

يُحبُّ الليلَ كثيرًا وقليلًا ما ينام، ويرى في اللّيل نافذةً لقلبِهِ على عالَمٍ هو خارجَ هذا السّجن الذي نحن فيه.

يقول: ما لا نستطيعُ أنْ نُبصِرَه بعيوننا، نبصِرُه بقلوبنا. نستشعرُ جَمالًا ما بعيدًا عنّا، فنقرّبه بالاستغراقِ فيه وتحسُّسِ تفاصيله وتلمُّسِ أجزائه، حتّى يصيرَ منّا ونصيرَ نحنُ منه، فنتحدّثُ عنه وكأنّنا نتحدَّث إليه.

عاد الحكيمُ قاسم ليقول: ما يلفتُ قلبي في قصّةِ الهُدهُد أبعدُ من ذلك.

ـ وما هو الأبعدُ من ذلك؟.. سألَ حمّود.

سمِعنا وقْعَ خُطى الحارس قريبًا من الشّرّاقة، ساد الصّمتُ وانقطعَ الهَمس. وشَعرنا مِن كثرَةِ ما كنّا مستأنسينَ بحديث الهدهد أنّ هذا الحارسَ قد قطعَ الطريقَ على الهدهد نفسه ولم يرجع إلى سليمان.

لا بدَّ أنّه يراقبُ المهجعَ الآن، يعدُّ الحركاتِ والأنفاس، نكادُ نحسُّ بعينَيه الجاحظتَين بكلِّ هذا الشَّرَه للأذى، وكأنّهما تصلان إلى عيونِ كلِّ واحدٍ منّا وهو في مكانه.

عُدنا لسماعِ وقعِ الخُطى الرّاجعة وهي تبتعد، تلاشى الصّوت، قفزَ سؤالُ حمّود مرّةً أُخرى.

أجاب الحكيم قاسم:

ما يشدُّني هو عودةُ الهدهدِ بهذه الحماسةِ إلى مكانٍ فيهِ عذابُه ربّما. عادَ بقوّةٍ لأنّه يحملُ خبرًا استثناءًا، ولأنّه عادَ من غَيبتِه بما يمتازُ بهِ عن كلِّ غائب، وهذا معنى الرّجوعِ القويّ الذي يعوّضُ

وحشَةَ الغيابِ ويبرّرُ الغيابَ وإنْ طال. ثمّ استماعُ النبيّ سليمان بكلِّ سُلطانِه إلى طائرٍ لا يملأ قبضةَ اليد.

قال حمّود: على ذِكرِ الرُّجوع القويّ، تذكّرتُ قولًا لعبدالقدّوس الجنجوهي الهنديّ الصوفيّ _رحمه الله_ معلّقًا على معراج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يقول: «**صعد محمّدٌ النبيُّ العربيُّ إلى السّماوات العُلى ثمّ رجعَ إلى الأرض، قسَمًا برَبّي؛ لو أنّي بلغتُ هذا المَقامَ لَما عُدتُ أبَدًا**».

فيقولُ محمّد إقبال رحمه الله معقّبًا: «إنّ الصُّوفيَّ لا يريد العودَ من مَقام الشُّهود، وحتّى إنْ رجع فإنّ رجعتَه لا تعني الشَّيءَ الكثيرَ بالنسبةِ للبشرِ بصفةٍ عامّة. أمّا رجعةُ النبيّ فهي رجعةٌ مُبدعة؛ إذ يعود ليشقَّ طريقَه في موكبِ الزّمانِ ابتغاءَ التحكُّم في ضبطِ قوى التاريخِ وتوجيهها على نَحْوٍ يُنشِئ بِهِ عالَمًا من المُثُل العُليا جديدًا».

قلتُ: سمعتُ فيما سمعت أنّه **عندما عادَ النبيُّ سليمان وأرسلَ الهدهدَ بكتابه إلى بلقيس، قال له، أيّها الهدهدُ: ألا أُرسلُ معكَ من يحرسُك في الطريق؟**

قال الهدهد: يا نبيَّ الله، كيف أخافُ وأنا أحملُ بين جناحيَّ «بسمِ الله الرحمن الرحيم»؟

قال حمّود: يا الله ما أجملَها! أضيفُها إلى محفوظاتي.

نحنُ الآن نتسلّلُ الواحدَ تِلوَ الآخر إلى دورةِ المياه للوضوء استعدادًا لصلاةِ الفجر.

أمّا أحمد الشّاميّ فسيصلّي بعينيه، فألمُ رأسه لن يساعدَه على الوضوء ولا على الصّلاةِ واقفًا أو قاعدًا.

بقي تسعٌ وعشرون حبّة باراسيتامول بعدَ الحِسبةِ الأخيرة، وبعد أن ذهبَتْ حبّةٌ واحدةٌ لأحمد.

قال الحكيم قاسم وهو يضحك: الحمدُ لله، لم يتمّ تعليمُ أحدٍ مِن الشّرّاقة الليلةَ هذه، يعني تسعٌ وعشرونَ حبّةً بالأمانِ على ما يبدو.

ليتَ أنّ مهجعَنا لم يكنْ يطلُّ على الباحة الرئيسية، باحةِ الإعدامات. فهنا تُنصَبُ أعوادُ المشانقِ كلَّ فترة، لتتدلّى عليها جثامينُ خيرةِ شبابِ هذا البلد. يقومُ أفرادُ الشرطةِ العسكريّة بإنزالهم بعد أن يُتَأَكّد من أنّهم فارقوا الحياة، ثمّ يُلقونَ بهم في سيّارة الزّيلِ العسكريّة، كما تُرمى الخِرافُ بعد ذبحها. تسيرُ سيّارة الزيل خارجةً من باب السّجن إلى المقبرة الجماعيّة القريبةِ كالمعتاد. تخرجُ السيّارة وتطوي مع خروجها أعطَرَ السِّيَرِ لأجملِ الشّباب.

حياةٌ كاملةٌ تنتهي بقرارٍ من محكمةٍ ميدانيّةٍ لم تمرَّ مصطلحاتُ الشّرفِ والضّميرِ على قاموسِها ولا قريبًا منه في لحظةٍ من الزّمن.

(عصام) و (عليّ) كانا من الذين أُعدِموا اليوم، صديقانِ من حِمص، كانا يدرسان الهندسة، وأُتِيَ بهما إلى سجنِ تدمرَ معًا. واليوم وبعد ثماني سنوات من اعتقالهما، رَحلا بصمت. كان يسألُني عصام: متى سنخرجُ من بابِ هذا السِّجنِ اللعين؟ لا شكَّ في أنّ الجوابَ قد وصلَه وهو يخرجُ من البابِ الآن..

لمْ يسمحْ ليَ الوقتُ بمصاحبةِ عليّ، فمنذ جيءَ بنا إلى السِّجن وهو في مهجعٍ وأنا في مهجع.

أمّا عصامٌ فقد جمعَنا المهجعِ رقم (8) ثلاثَ سنوات. كان نقيًّا كنقاءِ حِمص، جميلَ الرّوح كوَردها الجوريّ.

حزينٌ هذا اليوم، بدأ بسؤالٍ وانتهى بجواب. بدأَ برجوعِ الهُدهد وانتهى برحيلِ عصام.

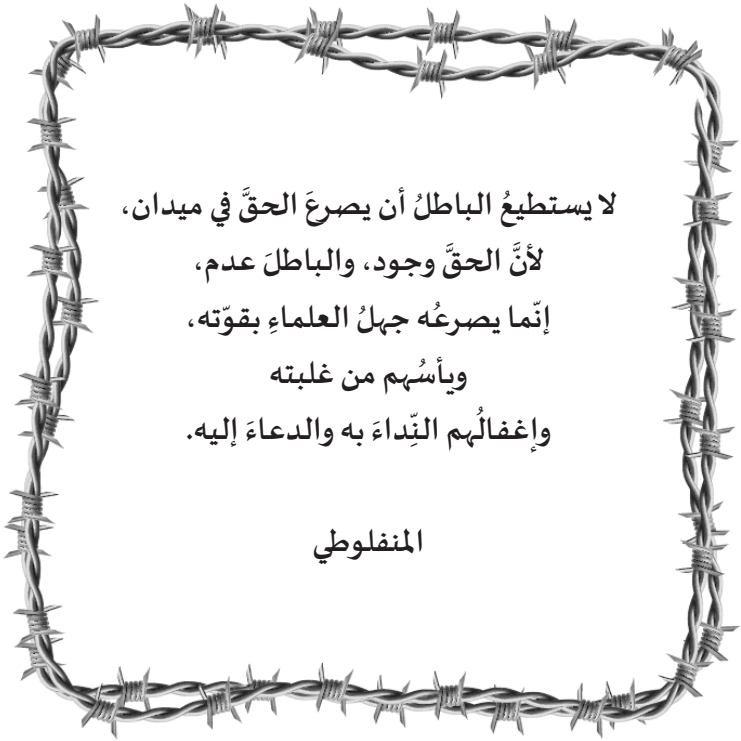

لا يستطيعُ الباطلُ أن يصرعَ الحقَّ في ميدان،
لأنَّ الحقَّ وجود، والباطلَ عدم،
إنّما يصرعُه جهلُ العلماءِ بقوّته،
ويأسُهم من غلبته
وإغفالُهم النِّداءَ به والدعاءَ إليه.

المنفلوطي

ما وراءَ الأبيض
والأسود

ولَدي، تفتّشُ عن أبيكَ بحُرقةٍ
وسـرى لهيبًا في الضلوع نداءُ
وأبوكَ في رمْلِ الصَّحارى غائبٌ
في قريةٍ سُكَّانُها الشـــهداءُ
أو أنّه في السجن ينتظر الرَّدى
بعزيمةٍ ما فلَّهـــا الأعـداءُ

أبياتٌ كان يتغنّى بها (براء) من قصيدة تدمريّةٍ حفظها هنا، كنتُ أسمعه وأنا أتحيّنُ الفرصةَ المناسبةَ للذِّهاب إلى الوضوء.

لقد كان هذا اليوم كالحًا من صباحه إلى مسائه. لن أشبّهه بأوراق الخريف، فأوراقُ الخريفِ قد كانت خضِرةً نضِرةً في وقتٍ مضى. بل كان كوجهِ (الطَّير)؛ أحد الجلّادين الجوّالين في الباحة الرئيسية وقتَ التنفُّس.

التنفُّس الذي ليس له من اسمه نصيبٌ إلا ما نستنشقهُ من التعذيبِ.. ومن الموتِ أحيانًا.

كان التنفُّسُ اليومَ قطعةً من جهنّم، لم ينجُ أحدٌ منّا من كرابيج الجلّادين. كنّا نستشعرُ الغليانَ في كلِّ شيء، في وجوهِ المجرمين، وفي سياطهم، وفي جدرانِ الباحة، وفي أرضيّتها الإسمنتيّة المهترئة. صار التنفُّسُ عندنا مقترنًا بالعذاب، والهواءُ مقترنًا بالدَّم.

أنا وحمّود، أعطينا وجوهَنا لبعضنا البعض، وأسلمناهم ظهورَنا، فهي تحتملُ ما لا تحتملهُ العينُ أو يتحمّله الوجه. أكثرُ ما آلمني ضربةُ كرباجٍ رباعيّ مجدولٍ على أُذني اليُمنى، أحسست بأنّ جانبي الأيمنَ قَد انخلَعَ من مكانه. فقدتُ توازني، ولكنْ ليس بطريقة نهائيّة، فقد اتّكأتُ على ذاكرتي، أنّني لا أزالُ حيًّا. تحاملتُ على قدميّ، ونظرتُ إلى الجلّاد. ثبتُّ عَيني في عينه، فقد كنتُ أنتظرُ هذه الفرصةَ منذ مدّة.

أنا بحاجةٍ إلى أن لا تنكسرَ عيني أمام عينه ولو لدقيقة. بحاجةٍ إلى أن أَقسِمَ معنى السِّجنِ على اثنين، سجينٍ وسَجّان. بحاجةٍ لأن أقول له شيئًا ما بلا كلمات، لأقول له إنّه ليس أحسنَ حالًا منّي، فهو مسجونٌ مثلي، غيرَ أنّ في يدهِ سَوطًا وأنا أعزل.

جميلٌ هذا الشُّعور، وأنتَ تُثبِتُ عينَيكَ في عينَيْ سَجّانِك، وكأنّك تمتصُّ منهما ظُلْمًا تحوّلُه إلى أمل، وغضَبًا تحوّلُه إلى إصرار، وصلَفًا تحوّلُه إلى طاقة، ووعيدًا تحوّله إلى سؤال:

أين كنتَ ستكون، لو لم أكُنْ أنا هنا؟

مرّتِ الدقيقةُ ولم يعقِبْها ضرب، وجاءَ الأمر بدخولِ المهجع.

ـ «رأيتُ ما كان بينَك وبين الجلّاد».. قال لي حمّود وهو يحكُّ ظهرَه المجلود.

قلت له: حاولتُ أن أتجاسَر بضَعفي أمام جبروته، فقد كنتُ بشوقٍ لتسجيلِ انتصارٍ ولو لدقيقة.

قال حمّود: تذكّرني بمقولة «**لا تُسَلِّمْ سِلاحَك، في الأقلّ؛ اِجعلهُم يغصّونَ بكَ وهم يأكلونك**».

ـ هو ذاك .. قلتُ لحمّود وأنا أستندُ إلى كتِفه.

قال مصطفى: جميلٌ أن تسجّلَ انتصارًا وأنتَ لا تملكُ حتّى أبسطَ أدواته. والأجملُ من ذلك أنْ يشعرَ خصمُكَ بهذا ولو لم يعترف بلسانه، والأجملُ من ذلك كلّه أن تنتهي هذه المواجهةُ بسؤالٍ يكونُ جوابُهُ ذاتُه نَصرًا. كأنْ يكونَ السؤالُ: مَن أنتَ؟ ومَن أنا؟

ضحكتُ وأنا أتلمّسُ رأسَ أحمد الشّاميّ الذي أرحناهُ من الخروجِ إلى التنفُّسِ اللعينِ بطريقةٍ ما.

ما زال موتُ صديقي (عصام) يُلقي بظِلّهِ على قلبي ونفسي، وإن كنتُ أحاولُ أن أظهرَ غير ذلك. فتفاؤلُكَ في مثل هذا المكانِ لا يكون لكَ وحدَك، وإنّما هو من أجل الذين يتفاءلون بتفاؤلك وينكسرون لانكسارك.

لم تكنْ هذه الفلسفة تمرُّ على صديقنا ناجي، المتشائم دائمًا. ناجي كتلةٌ من اليأسِ المتحرّك، يتشاكسُ مع مصطفى باستمرار، ويأخذُ عليهِ إفراطَه بالأمل. كان أستاذًا لمادّة الجغرافيا في إحدى مدارس يبرود _ القلمون.

يقول له مصطفى دائمًا: ما دُمنا أنا وأنتَ في هذا السّجن معًا، فما أحصّلُه أنا من أمَلي أفضلُ ممّا تحصّله أنتَ مِن يأسِك. فاليأسُ موجعٌ للذّاكرةِ والأملُ محفّزٌ لها، واليأسُ آسِرٌ للرّوح كقضبان زنزانة، والأملُ مُطلِقٌ لها كمفتاح. اليأسُ يجعلُ السّجنَ سِجنَين، والأملُ ينقلُك إلى خارج السّجنِ ولو لم تفعلْ ذلك حقيقةً.

ثمّ يغنّي مصطفى:

افتحْ فؤادَكَ للسّماء وقل لهم
متفائــلٌ متفائــلٌ متفائــلُ
لا تبتئسْ، سيعودُ فجرُكَ مشرِقًا
ويحطُّ بالبابِ الحمامُ الزّاجلُ

اِقرأْ رسالتَهُ التي فيها: (لقد = خسروا وفازَ بها الفؤادُ الآمِلُ)

يبتسمُ ناجي ولا يُخفي إعجابَه بالأبيات، ويقول:

لا أحبُّ أن أرسُمَ لنفسي سرابًا، حتى لا أصلَ إليه وتكون الصدمةُ أكبرَ عندما لا أجدُ شيئًا، فهذا بحدّ ذاته زيادةٌ في عطشِك. ولا أحبُّ أن ألوّنَ الأبيضَ والأسود، وقد اعتادتْ عيونُنا

على لونَين. ولا أحبّذُ أنْ أخيّلَ للقارئ أنّ وراءَ المعاني معانيَ أُخرى لا نراها نحن، وألفاظُنا بالكاد تستطيعُ حمْلَ المعاني القريبةِ منها.

قُلْ لي بربّكَ يا مصطفى: ما هذا الأملُ الذي يضمحِلُّ أمامَ بسطارِ جلّاد؟

وما هذا الأمَلُ الذي يتلاشى بضربةِ كرباج؟

وما هذا الأملُ الذي يُسحَقُ على حَبلِ مشنقة؟

مصطفى وهو يكتبُ على ساعده الأيسَر بنواةِ حبّة زيتون حادّةِ الطَّرَف _ وهذه إحدى طرق الحفظ في السّجن_ أجاب:

ـ وهل اليأسُ هو الذي يمزّق بسطارَ الجلّاد ويقطّع حبلَ المشنقة؟

يا صديقي باختصار: **كلُّ ما يستطيعُ اليأسُ فِعْلَه من أسبابِ الحياة، يستطيعُ الأملُ فِعلَ أضعافه. فأنتَ في غنىً عن سَجْنِ روحكِ مرّتين وقَتلِ نفسِكَ مرّتين.**

قطعَتْ آهاتُ صديقنا (عادل) علينا حديثَنا، فها هو يتكوّرُ على ذاته تحتَ رحمةِ الحُمّى وحرارتها التي ترتفعُ حينًا وتنخفضُ حينًا أُخرى. والحكيمُ قاسم يلازمه منذ ساعتَين.

قال ناجي لمصطفى بألَم:

أخشى يا صديقي أن يكونَ يأسي وأملُك كحرارة عادل وهي بين ارتفاعٍ وانخفاض، فهو على كلِّ حالٍ يتألّمُ يتألّم، وهو محمومٌ محموم، وهو سجينٌ سجين.

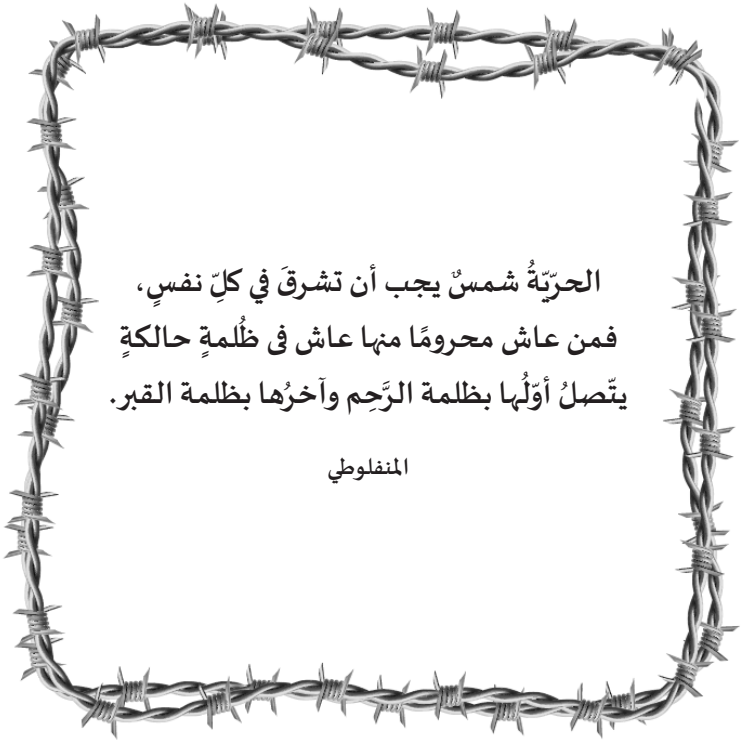

الحرّيّةُ شمسٌ يجب أن تشرقَ في كلِّ نفسٍ،
فمن عاش محرومًا منها عاش فى ظُلمةٍ حالكةٍ
يتّصلُ أوّلُها بظلمة الرَّحِم وآخرُها بظلمة القبر.

المنفلوطي

الفراشة

في الزاوية اليُسرى للباحة الرئيسيّةِ أكثرُ من زنزانةٍ إفراديّة، رُصِفت هذه الزنازينُ على شكلِ سِلسِلة، هذه السلسلةُ تداخلتْ مع المهاجع الكبيرةِ ومع مقرّ ضابطِ السّجن، فلا يظهرُ لنا من فتحةٍ صغيرةٍ في أعلى جدارِ مهجعِنا إلا زنزانةٌ واحدةٌ كُتِبَ عليها الرقم: (25).

كلّما فُتِحَ بابُ هذه الزنزانةِ أحسسنا كأنّ الدّنيا تغلقُ بابَها على قلوبِنا. لبابِها صريكٌ يقدحُ في الآذان عند فتحِه وإغلاقه، نسمعه في مهجعنا سماعًا واضحًا.

هذه الزنزانةُ شاهدةٌ على آخرِ أيّام الدّاخلِ إليها وآخِرِ لحظاته، فعادةً ما يؤتى بالمحكوم عليه بالإعدام إليها، وكأنّها لتجهيزِ الأمواتِ لموتِهم الأخير. آخِرُ مَن أُدخِلَ إليها وأُخرِجَ منها هو عصام.

أمّا عنّي فإنّني أتحاشى أن أسترقَ النّظَرَ إليها إذا سمعتُ صوتَ بابِها وهو يُفتَح، على عكس كمال وناجي المتسابقيَنِ إلى كلِّ ما من شأنِه أن يزيدَ مِن جُرعةِ اليأسِ لدَيهما.

كمال خرّيجٌ جامعيّ، من المنتسبين إلى الحزبِ الشيوعيّ، لا يؤمنُ بوجودِ الله، ولا يؤمنُ بما عدا ذلك ممّا نؤمن نحن به. فهو يرى أنّنا نعيشُ عَيشَ الهوامّ، دونَ تدبيرٍ وتصريفٍ من قوّةٍ أعلى. وأنّ البقاءَ للأقوى، وأنّ اللهَ لو كان يستطيعُ أن يغيّرِ شيئًا لغيَّرَ واقعَنا المنقوعَ بالدّمِ منذ سنوات.

ويقول ولا يُخفي قناعاتِه: أينَ اللهُ وحبلُ المشنقةِ يلتفُّ حولَ عُنُقِ بريء؟

وأينَ اللهُ والزنزانةُ (25) لا تتوقّف عن تجهيزِ الموتى منذ جِئنا إلى هذا المكان، أو جيءَ بِنا؟

وأينَ اللهُ؟ والمئةُ كرباجِ التي ضُربتُها مؤخَّرًا لم تترك في جسدي مكانًا يقول: إنّ هناكَ قوّةً أعلى قد تنقذُك!

وأينَ كان اللهُ حين ألقِيَ بعصام وعليّ كالخرافِ المذبوحةِ في سيّارةِ الزّيل العسكريّة، ليُدفَنوا في المقبرةِ الجماعيّة التي تصيحُ صباحَ مساء: لماذا تدفنونَ الأحياء؟

وأين اللهُ ونحيبُ أمّي يكادُ يصِلُ إليَّ في كلِّ ليلةٍ، ويطعنُني في قلبي فأنام ولا أنام؟

كان كثيرًا ما يسألُ هذه الأسئلةَ بصورة متتابعة لا يتركُ لِمَن يريدُ أن يُجيبَ وقتًا ليُجيب، وهو أصلًا لم يكنْ ينتظرُ الجوابَ مِن أحَد.

قلتُ له بهدوء: ببساطةٍ يا صديقي كمال إنّ اللهَ هو الذي لم يجعل المئةَ جلدةٍ التي ضُربتَها مئةً وخمسين.

وهو اللهُ الذي لم يجعلني أنا وأنتَ مع عليٍّ وعصام، ولم يجعلِ الحبلَينِ أربَعة.

وهو اللهُ الذي يربطُ على قلبِ أمِّكِ البعيدةِ عنك ويُمنّيها بعودةِ كمالٍ ذاتَ فرَج.

وهو اللهُ الذي يحملُ عنّا ما لا نستطيعُ حملَهُ، ويؤجِرُنا على ما استطعْنا حمْلَه.

وهو اللهُ الذي يمتحنُ إيمانَنا لدرجةٍ لا يكافئها إلا أعظمُ الأجر.

ويختبرُ صبرَنا، حتّى يُثيبَنا بما يليقُ بهذا الصَّبر.

وهو الله الذي يُملي للظالم حتى إذا أخذَه لم يُفلِته.

ثمّ هو اللهُ الذي رضيَ لي ولَكَ أن نكونَ المظلومين ولا نكون الظالمين، وهذه نعمةٌ يعجزُ عن شُكرِها اللّسانُ والجَنانُ معًا.

سمعني كمال ولم يُجِبْ بكلمةٍ واحدةٍ، واكتفى بالتوجّه ناحيةَ الفتحةِ أعلى الجدار لينظرَ جهةَ الزنزانةِ (25).

وأمّا (محمود) الزائرُ الجديد، الذي جيءَ بهِ منذ أسبوعٍ من المهجعِ الثامن بعد ترحيلِ المهجعِ بالكامل، فقد كان قلبُهُ مُعلَّقًا إلى خيطَين: خيطِ أملٍ وخيطِ يأس.

هكذا كان يقول لي. ويقول: أحيانًا يشدُّني خيطُ الأملِ أكثرَ فأتفاءل، وأحيانًا يشدّني خيطُ اليأسِ أكثرَ فأتشاءم، فما أزالُ بينَ شدٍّ وشدٍّ منذ ستِّ سنوات.

كان يحدّثُني منذ دقائق عن صديقه عبد المنعم السراقبي من ريفِ إدلب، كيف سقط على الأرضِ في حفلةِ التعذيب التي استقبلهم بها الجلّادون أوّلَ مجيئهم إلى السِّجن، وكيف كان يقول وهو يسقطُ على الأرض: «اللهمّ قِني عذابَكَ يومَ تبعثُ عبادَك».

كما وحدَّثني عن صديقه (عابد)، الذي جيءَ بهِ من إدلب إلى فرعِ الأمن العسكريّ بدمشق لترحيلِه إلى هنا.

قال لي محمود: بينما نحنُ في زنزانةٍ لا مكان فيها للشّمس ولا للحياة _ وكنّا مجموعةً من الأشخاص، بينَنا عابد من إحدى قُرى إدلب، وكان شاعرًا _ إذ دخلتْ فراشةٌ إلى الزنزانةِ مِن كوَّةٍ صغيرةٍ أعلى الجدار، فخاطبها عابد بأبياتٍ حفظتُ منها:

فراشــةٌ دخلتْ ســجني بهــا وجَلُ
يا زينةَ الرّوضِ هل ضلَّتْ بكِ السُّبُلُ؟
ما في السّــجونِ رياضٌ تمرحينَ بها
لكنّمــا هــي للأحــرارِ مُعتقَــلُ
طارتْ فطــارَ فــؤادي إثرَها وهوى
وكان دونَ حديــدِ الكُــوّةِ الأجــلُ

سمعه الحارسُ وأخبرَ عنه، ثمّ قتلوه في زنزانته قبل أنْ يُرسِلوه إلى سجنِ تدمر.

قالها محمود وشَرِقَ بدمعته.

قال مصطفى الذي كان يسمعُ حديثَنا:

على مذبح الحرّيّة، تتمّ تصفيةُ الدّمِ السّاخن الثائر، الذي سيؤسّس لنهرٍ كامنٍ سينفجرُ في الوقتِ الذي لا يحسِبُ له الطُّغاةُ حسابًا. لقد كانت الزنازينُ محطّاتٍ للشّبابِ الحُرّ، والطاقات الواعدة، والعقولِ الحالمةِ بعالَمٍ أفضل، ليسَ فيهِ سوطٌ ولا جَلّادٌ ولا سِجْنٌ ولا سجّان. وكانت في نظَرِ الطغاةِ والمستبدّين، فُرَصًا تطيلُ أعمارَهم. ولكنّهم لم يكونوا يعلمون، أنّها مسابحُ الدم التي تعومُ عليها كراسيُّهم، وأنّها هي ذاتها التي ستغرقهم بكلّ جبروتهم ذاتَ طوفان.

أذكَتْ كلماتُ مصطفى في قلبي النّارَ التي أشعلَها حديثُ محمود، فانطلقتُ أدندنُ بأبيات الشاعر هاشم الرفاعي من قصيدته «رسالةٌ في ليلةِ التنفيذ»:

أَنْفاسُــكَ الحَرَّى وَإِنْ هِــيَ أُخمِدَتْ
سَــتَظَلُّ تَعْمُــرُ أُفْقَهُــمْ بِدُخــانِ
وقُروحُ جِسْــمِكَ وَهُوَ تَحْتَ سِياطِهِمْ
قَسَــماتُ صُبْــحٍ يَتَّقِيــهِ الْجانــي

دَمْـعُ السَّـجينِ هُنـاكَ فـي أَغْلالِه
وَدَمُ الشَّـهيدِ هُنَـا سَـيَلْتَقِيانِ
حَتَّى إذا ما أُفْعِمَتْ بِهِما الرُّبى
لـم يَبْـقَ غَيْـرُ تَمَـرُّدِ الفَيَضـانِ
ومَنِ الْعواصِفِ مَا يَكُونُ هُبُوبُهَا
بَعْـدَ الْهُـدوءِ وَرَاحَـةِ الرُّبَّـانِ
إِنَّ اْحْتِدامَ النَّارِ في جَوْفِ الثَّرَى
أَمْـرٌ يُثيـرُ حَفِيظَـةَ الْبُـرْكانِ
وتتابُعَ القَطَراتِ يَنْـزِلُ بَعْدَهُ
سَـيْلٌ يَليـهِ تَدَفُّـقُ الطُّوفـانِ
فَيَمُوجُ يقتلعُ الطُّغاةَ مُزَمْجِرًا
أقْوى مِـنَ الْجَبَـرُوتِ وَالسُّـلْطانِ

ـ هل كتبها هاشمُ الرفاعيّ في ليلةِ تنفيذِ إعدامه فعلًا؟.. سألني مصطفى.

ـ لا أبدًا، فهو قد كتبها على لسانِ مُعتَقَلٍ في سجون جمال عبد الناصر، حُكِمَ عليه بالإعدام، وهو يعيشُ ليلتَه الأخيرة.

قال محمود: مَن يكتبُ مثلَ هذه القصيدة، لا بُدَّ وأنَّ في صدرِه قلبَ سجينٍ سيُعدَم غدًا. فليس من السَّهلِ أن تجمعَ الألمَ من أطرافِه وتزجَّ به في قصيدة. وليس من السَّهل أنْ تُمسِكَ

بتلابيبِ كلِّ هذا الحُزنِ بأصابعِ الشِّعر. وليسَ من اليسير أن تحشدَ كلَّ هذا الأملِ والألَمِ وهذه الدّموعِ والشّموعِ والحياةَ والموتَ والإصرارَ والانهيارَ فِي هذه السّرديّةِ التي قُدَّتَ من جِدارِ زنزانةٍ أو مِن قميصِ محكومٍ عليهِ بالموتِ المؤبَّد.

ـ هلِ استطاعَ الشّاعرُ أن يقولَ كلَّ ما في نفسِ المُعتقَلِ حقًّا؟ أشكُّ في هذا.. قالها كمال وهو يسترقُ النظرَ من فتحةِ الجدارِ إلى جهةِ الزنزانة (٢٥).

الأرضُ للطوفـانِ مشـتاقةٌ
لعلّها مِن درَنٍ تُغسَـلُ
بهجت عبّاس

في سبيل
الرحمن

مرّ هذا اليوم ثقيلًا على قلبي وقلوبِنا جميعًا. حتّى الهواء الذي نعايشُهُ كلَّ يومٍ ونتنفّسه أحسستُ بأنّهُ أثقلُ من كلِّ يوم. كان يومًا كئيبًا.

ـ ما معنى الكآبة؟.. سألني براء ذاتَ حُزن.

قلت: **هي أن يُغلَقَ بابُ هذا المهجع على صدرك مع إغلاقه، وأنْ يكونَ القفلُ على قلبكَ لا على الباب، وأن تموتَ ببطءٍ ولا تموت، وأن تنامَ ولا تنام، وأن تُحاصِرَ نفسَكَ فتكونَ أنتَ القاتِلَ والمقتول في آنٍ معًا، وأنْ تسألَ نفسَكَ ولا تُجيب، ثمَّ تُجيب عن أسئلةٍ لم تسألها، وأنْ تكتبَ ولا تقرأ، وتقرأ ما لا تكتب، وأنْ يدعوَكَ الحزنُ فتلبّي، وتدعوه فيلبّي.**

ـ هذا هو الموتُ ذاته.. قال براء.

قلت: بل أبعدُ.

نعم، كان يومًا كئيبًا، فقد قُتِل صديقُنا خلدون في الباحة الرئيسيّةِ في وقتِ التنفّس. لقد تنفَّسَ الموتَ كلَّه. خلدون، فارقَ الحياةَ بعد حفلةٍ من التعذيب استمرّت ستَّ ساعات، سقط في ساحة السّجن، فحصه طبيبُ السّجن وأكّد وفاته.

وقف على جثّته مدير السجن فيصل غانم وغادر، ثمّ استدرك وعاد.

فسأل: من قتلَه؟

قال أحدُ العرفاء: أنا سيّدي.

فقال فيصل غانم: قَسَمًا بشرفي، لئن ارتكبت مثل هذه (البياخة) مرّة ثانية فسأحلق لك شعرَك، وضحك وانصرف.

في زاويةِ المهجع، حمّود والشيخ هاشم يواسِيان عبّاس، صديقَ خلدون وابنَ حارته ورفيقَ طفولته.

عبّاس يسندُ رأسَه إلى يدَيه اللّتَين تغطّيان وجهَه في الوقت نفسه.

ـ هل تريد أنْ تقولَ لي: خبّئْ دموعَكَ فأمامَكَ وأمامنا الكثيرُ من الفقد؟.. سألَ عبّاسُ الشيخَ هاشم وهو يستجمعُ أطرافَ أكمامِ سترته الزرقاء بقبضَتَيه ويمسحُ دموعَه.

ـ قال الشيخ هاشم: لستُ في مكانِ المُواسي، فحالُنا من بعضه كما يُقال، ولكنْ يشدُّ بعضُنا بعضًا لنتحاملَ على جراحِنا التي لن تبرأ ما دُمنا هنا.

ـ ما هذه الأيّام التي سنقطعُها بالموتِ ونعبرُها بالفَقدِ ونتحاملُ عليها بالجراح؟.. سأل عبّاس وهو ينظرُ جهةَ الباب.

تجمّع أكثرُنا حولَ عبّاس من باب المواساةِ كذلك. كان الشّعاعُ الدّاخلُ من الفتحةِ أعلى الجدار يسقطُ على وجه عبّاسٍ فتلمعُ دموعُه على خدّيه، وتصبحُ عيناه المحمرّتانِ أكبرَ من حقيقتهما.

ـ ربَّتَ الشيخ هاشم على كتِفِ عبّاس وقال: اسمع واسمعوا هذه القصّةَ وخُذوا عبرتَها.

خاطبَ أبو الهيثم أحدُ رفقاءِ ابن حنبل في السّجن.. خاطبَ ابنَ حنبلَ فقال: يا إمام، أنا أبو الهيثم العَيّار، اللّصُّ الطّرّار، قاطعُ طريقٍ وشاربُ خمر، مكتوبٌ في ديوان أمير المؤمنين: أنّي ضُربتُ ثماني عشرةَ ألف جلدةٍ متفرّقة، وصبرتُ على السَّوط في سبيل الشيطان، فاصبِرْ أنتَ في سبيل الرحمن.

نهضَ الشيخ هاشم وهو يكرّرُ العبارةَ الأخيرةَ، فكانت على قلوبِنا كحبّاتِ البرَدِ وقتَ الهجير.

لطالما كنتُ أنظرُ إلى الشيخ هاشم وأقول في نفسي: كيف لسنديانةٍ أن تكونَ في سِجن؟

لا يفارقُ القرآنُ لِسانَه، ولا الذِّكرُ قلبَه، ولا الابتسامةُ ثَغرَه. وغالبًا ما يتصدّرُ هو لِجَلَبِ الطّعام والقيام بدَورِ السُّخرة الذي يكلّفه ضربًا وركلًا وجلدًا إضافيًّا. ولكنّه كشَجرةِ الصّبّار، لا يأبَهُ لكلِّ ما ينتهي عند جسَدِه، إذ إنّ روحَه منطلقةٌ لأعلى دائمًا.

وكان السِّجنُ قطعةً من اللّيل، فهو في ليلِهِ طوالَ يومه. غير أنّ نفْسَهُ مُشرقة، فهو في نهارِهِ طَوالَ نفْسِه. وكانَ ظَهرُه أعتى من جدارِ المهجع، وكأنّه قُدَّ منه فتصلّبَ أكثر، فإذا استند إليه تساندا على بعضهما البعض. وكثيرًا ما كنتُ أقتربُ منه فأسمعه يجوِّدُ هذه الآية: {بآياتِنا أنتما ومَنِ اتَّبَعَكُما الغالِبون}.

قال لي ذاتَ ليلٍ بارد، وكنتُ مع مصطفى وحمّود وكمال وناجي وغيرِهم، نحنُ الذين أماكنُ نومِنا هي الأقرب إلى بعضها وإلى زاوية المهجع الواقعةِ تحت فتحة الجدار تقريبًا، قال: لا بُدَّ أن تعيشَ أرواحُنا بعضَ اليوم خارجَ هذا السِّجن، فلا تتعب أكثرَ من تَعَبِها، ولا تُسجَن أكثرَ مِن سِجنها.

ـ وكيفَ نُسَلّي أرواحَنا بالبَردِ ونحنُ في التّنّور؟.. سألَ كمال.

أجابَ الشيخُ هاشم: نجعلُ أرواحَنا أكبرَ من أجسادِنا، فإذا جلدَتِ السياطُ أجسادَنا لم تصِلْ إلى أرواحِنا بالكُلّيّة، وإذا اتّسعَ السِّجنُ لأجسادنا، لم يتّسعْ لأرواحِنا.

يعني باختصار: نجعلُ مساحاتِ أرواحِنا أكبرَ من مساحاتِ أجسادنا، فيصغُر السِّجنُ عن سَجْنِها بالكامل، وتتوزّع السِّياطُ على مساحةٍ أوسَع، فيتوزّعُ الألَمُ ثم يتبدّدُ ثمّ يتلاشى.

ثمّ التفتَ إلى كمال وناجي وقال لهما: هذه الفتحةُ التي يتسلّلُ منها ضوءُ القمرِ إلينا الآن، هي ذاتها الفتحة التي تنظرانِ منها إلى الزنزانة (25) في النّهار، أليس كذلك؟

أمّا كمال وناجي فاكتَفَيا بهزّ رأسَيهما.

كان ضوءُ القمرِ الهابطُ علينا من الكُوّةِ أكبرَ من حقيقته بمرّتَين، وكأنّه كلما دَنا مِنّا اتّسَع. وكان كأنّه يتركُ على وجوهِنا أثرًا مِن ماء.

قلت: لا ندري ماذا يخبّئُ لنا يومُ غد، أقصد اليومَ التالي لاستشهاد خلدون.

ـ «إذا كان سقفُ ما ينتظرُك شهادة، فأنتَ بخير».. قالها الشيخُ هاشم وهو ينظرُ إلى كمال وناجي ويبتسم، فضحكنا جميعًا.

أنا مَدينٌ بحريّتي لذلك البوحِ النبويّ
الخالدِ النّابضِ في عروقِ الحياة..
«دخلتِ امرأةٌ النّارَ في هرّةٍ حبستها،
لا هي أطعمتها ولا هي تركتها
تأكل من خَشاش الأرض».

بعْدَ منتصفِ الوَيل

كان هذا اليومُ يومًا باردًا باردًا. أمّا لَيلُه فكأنّه قطعةٌ من الزَّمهرير قد وضِعَتْ على ظَهرِ كلِّ واحدٍ منّا. وكأنّ لهذا البردِ أظافِرَ تنقُرُ على عِظامنا. الأغطيةُ لا تكفي كلَّ واحدٍ منّا ليستطيعَ النوم تحت وطأةِ هذا الضَّيفِ الثّقيل، حتّى كنّا نضطرُّ للالتحام ببعضنا البعض، لنوفّر ما نستطيع من الأغطيةِ المهترئةِ لرَميها فوقَنا وتحتَنا. لستَ محاصَرًا بسِجنِكَ الآنَ فحسْب، وإنّما بِبَردِك.

قلتُ لحمّود وأنفاسُنا تصطدمُ ببعضها البعض: سمعتُ أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم كان يدعو اللهَ ويقول: «اللهمّ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ إليَّ من الماءِ البارد»، فهل يجوزُ أن نقولَ الآن: ومِن الماءِ السّاخن؟

ضحك حمّود وقال: ولِم لا، وقدّ صَحّتْ منكَ النيّة؟

كلُّ بردٍ تستطيعُ أن تتناساه إلّا برد السِّجن، لأنّه يحاصِرُكَ كَسِجن، فلا يتركُ لكَ خِيارًا إلّا الألم.

في هذه الأثناء كنّا نسمعُ دندنةَ مصطفى، كان يغطّي نصفَ وجهه ويغنّي:

وأجملُ مـــا في الحياةِ انعِتاقٌ
وأجملُ ما في الحياةِ انطلاقْ
وأقسى الذي في الحياةِ عزيزٌ
يُشَـــدُّ على مِعصمَيْـــهِ الوثاقْ

كلماتٌ بعثَتِ الدِّفءَ في عظامنا المنخورةِ من البَرْد، خلا عظامَ ناجي الذي قال:

وماذا يتركُ لنا هذا السِّجنُ الباردُ من الأمل والانطلاق؟

ـ فيزيولوجيًّا.. حرارةُ القلبِ ثابتةٌ في الجسم، وهذا يكفي لينبضَ ويقاوم.. أجاب مصطفى وهو يسحبُ وجهَه من تحت البطّانيّة الخشنة.

أسند ظهرَه إلى الجدار وتابع قائلًا: **ممّا يهوّنُ عليَّ ألَمَ السِّجنِ وعضّةَ البردِ ووجعَ القيدِ أنّني أتعذَّبُ نيابةً عن كثيرين ممّن تركناهم خلفَنا خارجَ السِّجن، وأنّني أحتملُ ألمَ الكرابيج عن ظهورٍ لا تحتمل، وأنّني أتقاسمُ مُرَّ الحياةِ مع إخوةٍ لنا لم يقاسمونا مرارةَ السِّجن.**

ـ هل أفهمُ من ذلك أنّ سهرتَكم الهامسةَ قد بدأَتْ؟.. سأل كمالُ ضاحكًا.

ـ قلتُ: السِّجنُ واللّيلُ والبردُ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض، فأجملُ ما يكون منّا أن نتناساها بالسَّمَرِ والحديث.

ـ يعني هل ترى أنّ اللهَ اختارَنا لهذه المِحنةِ عنّا وعن غيرِنا؟.. ناجي يسألُ مصطفى.

أجاب مصطفى: ربّما يكون وربّما لا يكون، ولكنْ ما أردتُ قَولَه هو أنّني بهذا الشّعور أتحاملُ على الألَم أكثر، وأشعرُ أنّ مهَمَّتي أعظم، وأنّ ما طُلِبَ منّي هو كبير. وأنّه يصدقُ فيَّ _وأنا بينَ شُعوري هذا وقَهري_ قَولُ الشّاعر:

قد هيّــؤوكَ لأمرٍ لو فطِنتَ له

فاربَأْ بنفسِكَ أن ترعى مع الهمَلِ

ـ وماذا إذا كُنّا نُهَيَّأ للمشانق؟.. سأَل ناجي وهو يرتجفُ من البرد.

ـ تبقى حرارةُ قلوبِنا بعدَنا، وتقرأ عنّا الأجيالُ أنّنا صمدنا حتّى الرّمق الأخير ومِتنا واقفين.

إنّها ضريبةُ الاختيار العظيم يا صديقي.. أجاب مصطفى وهو يحرّك يدَه على موضع قلبِه.

قال الشيخ هاشم الّذي يسمعُ تحاورَنا: ذكّرتني كلمةُ الاختيار بجَمالٍ كثير، فقد كنتُ أقرأ اليومَ في سورةِ القَصَص، ومررتُ بقول اللهِ عزّ وجلَّ لنبيّه موسى: {وأنا اخترتُك فاستمع لِما يوحى}.

{وأنا اخترتُك}.. كلمةٌ بوَزنِ الأرض، تعدِلُ الدّنيا وما فيها. فالذي تُقالُ له هذه الكلمة لا يطلُبُ بعدَها من الدّنيا شيئًا إلّا لقاءَ قائِلها.

يا الله ما أجملَها وما أحناها على القلبِ والرّوح. تخيّلْ أن يقول لك اللهُ وهو الله: مِن بينِ كلِّ النّاس اخترتُكَ أنت، ومِن بين كلِّ البَشَرِ أريدك أنت. استثناءٌ ليس كمثله استثناء، يعيشُ المُستَثنى فيه في جنّةٍ عرضُها كعرضِ السّماواتِ والأرضِ وهو على الأرض.

عندها أخذ حمّود يقول: «**يا عبدي: نريدُ منكَ أنْ تريدَنا ولا تريدَ معنا، ونريدُ منكَ أنْ تختارنا ولا تختارَ علينا، ونرضى لك أنْ ترضانا ولا ترضى سوانا. وَيْحَك: إنّا أجللنا قدرَكَ أنْ نشغلَكَ بأمرِ نفسِك فلا تصغّرْ قدرَك. يا مَنْ رفعناه: لا تنزلنَّ بحوالتِكَ على غيرِنا، ويا مَن أعززناه: أنتَ عندَنا أجلُّ مِن أنْ نشغلَكَ بغيرنا. لحضرتي خلقتُكَ، وإليها خطبتُك، وبجواذبِ عنايتي إليها جذبتُك، فإن اشتغلتَ بنفسِكَ حجبتُك، وإن اتّبعتَ هواها طردتك، وإنْ خرجتَ عنها قرّبتُك، وإنْ توددتَ إليّ بإعراضِك عمّا سوايَ أحببتُك**».

قلتُ: يا الله، لمَن هذا الكلام؟

ـ لابنِ عطاء اللهِ السَّكندريّ.. أجاب حمّود وهو ينظرُ إلى كمال مبتسمًا.

قال كمال: أنا غريبٌ عن مثلِ هذا الكلام وهو غريبٌ عنّي، لا يعنيني لا في كثيرٍ ولا في قليل، ولكن لا أعلَم لماذا وأنا أسمعه

يتبدّدُ بَرْدي وتتلاشى وحدةُ روحي وأشعرُ بأنّ الجوَّ قد صار أكثرَ دفئًا مِن قبلِ ساعةٍ من الآن.

صوتٌ في الأعلى يقترب، الشّرُّ يطلُّ علينا برأسه من الشّرّاقة، والأصواتُ تنخفضُ شيئًا فشيئًا، وأمّا عنّا فبَقينا جالِسين، وكأنَّ الحديثَ الذي كنّا فيه قد طردَ عنّا الخوفَ أو شيئًا منه.

صوتٌ في الأعلى يبتعد، هكذا تمامًا كحالِنا المُعلَّق إلى خيطَينِ من أخذٍ ورَدّ، شِدَّةٍ وشِدّةٍ أقسى، موتٍ ونجاةٍ مؤجَّلَةٍ إلى إشعارٍ آخَر.

تنهّدَ ناجي وقال: لماذا نحنُ هُنا؟ السّؤال الذي لا أجدُ له جوابًا، وكلّما سألتُهُ لنفْسي ارتدَّ إليَّ الجوابُ على هيئةِ سؤال: لماذا أنتَ هنا؟

ـ السّاعةُ الثانيةُ بعد منتصفِ الوَيل.. قال كمال.

ـ هل هذا جوابُ سؤالي؟.. سألَ ناجي.

ضحك كمال وقال: اعتبرهُ جوابًا عن سؤال.. لماذا نحنُ هنا في مثلِ هذا الوقت؟

ولماذا نحنُ محكومون بزمانٍ ومكانٍ ليسا منّا ولسنا منهما في شيء؟

ولماذا نحنُ هنا وغيرُنا هناك؟

ولماذا هناك من ينامُ في حضنِ أمّهِ وأمّي لا تعرفُ عنّي شيئًا؟

ولماذا كان علينا أن نقولَ: لا، وغيرُنا عاشَ بكلمةِ (نَعَم)؟

ولماذا كان على جيفارا وعمر المختار ونيلسون مانديلّا أن يقولوا: لا، ويكتفي غيرُهم بِنَعَم؟

ثمّ يَصْلى من قالَ (لا) بِنارِ لا، وينعَمَ مَن قالَ (نعَم) بِنعيمِ نَعَم؟

بإمكانك أن تعتبرَ عبارتي جوابًا على كلّ هذه الأسئلةِ يا ناجي.

قال الشيخ هاشم: الجوابُ الحقيقيّ على هذه الأسئلةِ وأكثر منها هو غيابُ العدل.

فنحن لا نزال حتى يومنا هذا نستذكر قولَ رسول كسرى عندما زار أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ في المدينة المنوّرة ورآه نائمًا تحت الشّجرة في ظاهر المدينة بلا حرسٍ ولا مرافقةٍ أمنيّةٍ ولا مراسم، فقال: عدلتَ فأمِنتَ فنمت.

وحُقَّ لأمّةٍ ساد فيها العدلُ أن تسودَ وتتسيّدَ على الأمم. والمجتمع العادل الراشد هو الذي يحصّن بالعدلِ كلَّ فردٍ فيه، فينطلق هذا الفردُ للبناء دون خوفٍ على حقوقٍ أو نفسٍ أو حياة.

العدل: كلمةُ السماء في الأرض، وميزانُ الله المصنوعُ على عينه، والمنصوبُ في مُلكه، وأساسُ المُلكِ في الأولى والآخرة. {وإذا حكمتم بين النّاسِ أن تحكموا بالعدل}.

هو مطمحُ البشر ومطلوبُ الأنفس في الدّنيا وضمانةٌ للنّفس من الظُّلم وحصانةٌ للإنسان من المَيل والحَيف. من أجله يناضلُ

الإنسان وعنه يدافع، ويبذلُ من أجله الغالي والرخيص، وبه تستقيمُ أمورُ الدّنيا وتنتظمُ شؤونُ الحياة.

لا شيءَ أغلى في الحياةِ...
من الحياةِ وأجملُ
هي روضةٌ خلّابةٌ
والعدلُ فيها منهَلُ

قد قال جــلّ جلالُه:

{وإذا حكمتم فاعدِلوا}

إنّ خيريّة هذه الأمة مرهونةٌ بالعدل، فإذا انتقض العدلُ سقطت الخيريّة وكان الاستبدال، وإنّ ممّا فاخرت به أمّتُنا الأممَ الأخرى هو العدل الذي كان منهجًا فيها وعقيدة.

أجل، فبالعدلِ تُصانُ الحقوق وتُحفَظُ النّفوس وينتصرُ المجتمعُ للفرد ويكبُرُ الفردُ في المجتمع ويُحفَظُ العملُ الصّالحُ، وهو أمرُ الله المؤسّسُ للإصلاح.

ولقد قيل: «عدلُ السُّلطان أنفعُ من خِصْبِ الزّمان».

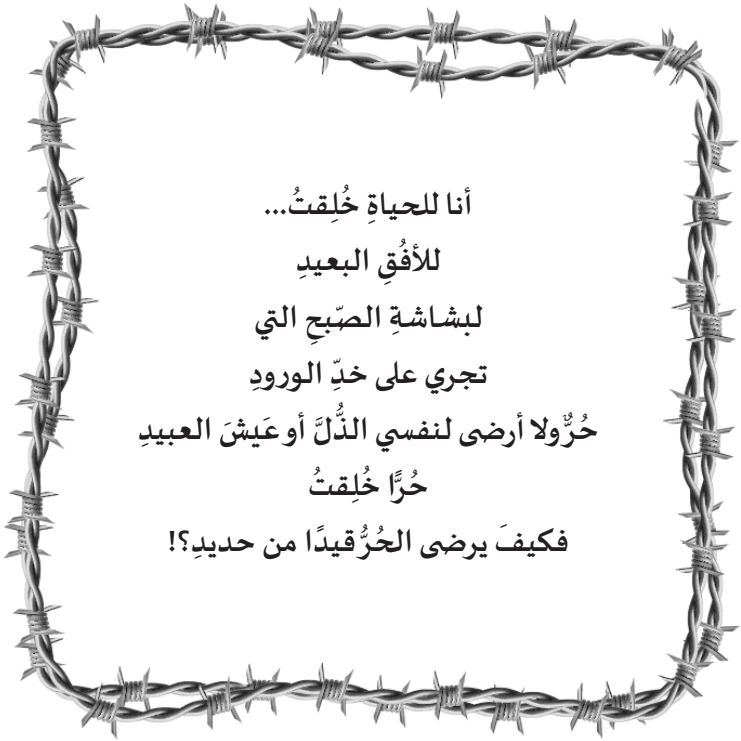
أنا للحياةِ خُلِقتُ...
للأفُقِ البعيدِ
لبشاشةِ الصّبحِ التي
تجري على خدِّ الورودِ
حُرًّولا أرضى لنفسي الذُّلَّ أوعَيشَ العبيدِ
حُرًّا خُلِقتُ
فكيفَ يرضى الحُرُّقيدًا من حديدٍ؟!

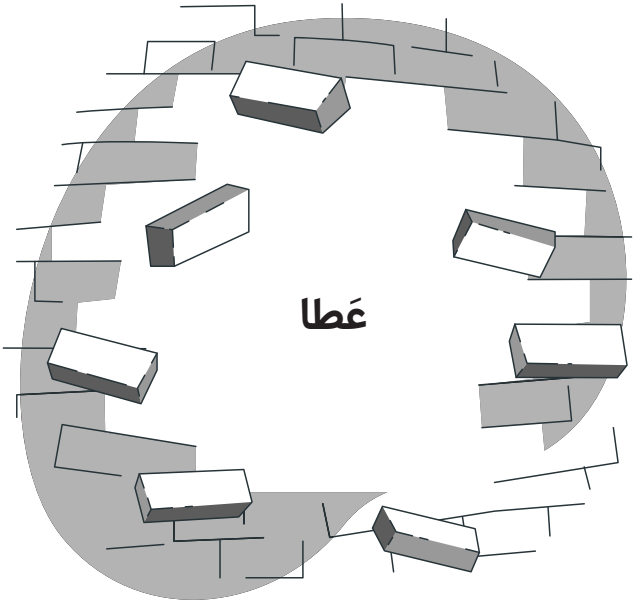
عَطا

اليوم، وبعدَ حفلةٍ من التعذيبِ والإهانات، وعاصفةٍ من السِّبابِ والشتائم، وسَبِّ الإلهِ والدِّين في الباحةِ الرئيسيّةِ أثناءَ التّنفُّس المسائيّ، جلسْنا في المهجَع مُنهَكين. كلُّ واحدٍ منّا يتلمَّسُ أجزاءَ جسده وكأنّه يطمئنُّ علَيها أنّها ما زالت موجودة.

كان عبّاسُ يُسنِدُ ظهرَه إلى جدارِ المهجع وينغِّمُ أبياتًا بصوتٍ موجِعٍ مبحوح:

ما ضاقتِ الدّنيــا بقلبيَ مرّةً
ودعوتُــهُ إلّا وهَمّــيَ زالا
فَوَحقِّــكَ اللّهُمَّ ما مالَ الهوى
يومًا ولا عن بابِ حُبّكَ مالا
أهفو فيهفو نحوَ بابكِ خاطري
حتى أحــطَّ ببابــكَ الأثقالا
ثِقَتي بــكَ اللهمَّ أنّــكَ غافرٌ
ولقد دعوتُ فلا تردَّ ســؤالا

عبّاس من اللاذقيّةِ، كان يدرسُ التّاريخ في جامعةِ دمشق، داهمت المخابراتُ الجويّة منزلَه ووجدوا عندَه كتُبًا لمصطفى السباعيّ.

عندما داهموا منزلي في دمشق، كنتُ أقرأُ كتاب «هكذا علَّمَتني الحياة» لمصطفى السباعيِّ رحمه الله.. هكذا قال لنا عبّاس.

كنتُ ألاطفُه وأقول له: أرأيتَ يا عبّاسُ كيفَ يسجنُ الطُّغاةُ التاريخ؟

فكان يضحكُ ويقول لي: حتّى يكتبوا التاريخَ كما يشتهون.

ويقول: **التاريخُ أكبرُ من جغرافيا الطّغاةِ والمستبدّين، أقوى منهم بألفِ حقيقة، وأبعدُ مِن كراسيّهم بألفِ قَرن، وأطولُ من سياطهم بمراحل. مهما كادوا بهِ فلن يحصروه بين أربعةِ جدران، ولنْ يحدّوهُ بالرّقم (25). هذه الزنزانةُ التي تضعُ حدًّا لتواريخَ كثيرةٍ كما يتوهّمون، هي ذاتُها التي تبدأُ بكتابةِ تواريخَ أُخرى لأجيالٍ ستقرأُ ذاتَ يومٍ.. وحرّيّة.**

«يا ربَّنا يا ربْ.. متى يعودُ يوسُفُ.. ولا يعودُ الذِّئبْ؟»..

قالها حمّودُ وهو يتأوّه من ألَم الكرابيج التي كان له نصيبٌ كبيرٌ منها اليوم.

قال براء وهو يرشُّ الماءَ على وجهه برؤوس أصابعه: كلُّ ما حصل معنا الآن من قهرٍ ووجعٍ هو من ضمن 75%.

ـ وما قصّة النسبة المئويّة هذه؟.. سألتُ براء.

قال براء: عندما جاؤوا بنا إلى هنا وبعد حفلة الاستقبال المؤلمة حدَّ الموت، قال لنا الرّقباء الذين استقبلونا ذلك الاستقبال الحافل: نحن مسموحٌ لنا أن نقتلَ 25% منكم.

بالتأكيد تفاءلتُ، لأنّ النسبةَ الحقيقيّةَ كانت أكبر من ذلك بكثير. فهنا يكون التعذيبُ حُبًّا في التعذيب، والقتلُ حُبًّا في القتل، ولا يكون للألَمِ حدٌّ يقفُ عنده، ولا للقهرِ سقفٌ لا يتجاوزه.

في أيّامي الأولى هنا، كان الوجعُ يأكلُ جسدي ليلَ نهار، وكنتُ أحسُّ ببطءِ اليوم على حياتي، وبثقله على قلبي، حتّى لو كان بالإمكان أن ألمسَ عقاربَ السّاعةِ بيدي وأقدّمها إلى الأمام لفعَلت.

أنا اعتُقِلتُ لأمثّل أسرتي هنا، فيجب أن يكون هنا واحدٌ من كلِّ عائلةٍ ليكون رادعًا لأيّ ثورةٍ قادمة.

أذكر اليومَ الذي أُعدِمَ فيه صديقانا: (ماهر طبّة) من حلَب و (باسل شُرَفة) من دمشق، وكيف تزلزل كياني. في مثل تلك اللحظة، أنت تواجهُ حقيقةَ الموت.

ـ **«الموت، آخِرُ الجُبناءِ الذين تصادفهم في حياتك»..**

قال كمال وهو يمسحُ قطراتِ الدّم من جُرحٍ تحتَ عينه.

قال حمّود: بل هو أوّل من ينتصفُ لكَ من خصمك، ويضعُ حدًّا لظلمه كما يضعُ حدًّا لوجعك.

الموتُ ليس جبانًا يا صديقي، بلْ إنّ الذين يخافونَ منه هم الجُبَناء، لأنّه سيفاجئهم بما لا يحبّون، وسيرونَ بعده ما لا يشتهون، وسيكونون المغلوبينَ على أمرهم بعد أن كانوا الغالِبينَ كما يتوهّمون.

هؤلاء الطّغاةُ أهونُ ممّا نتصَوّرُ نحن، سيصرعهم الموتُ ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، ولذلك فهم يخافون منه، ويحسبون له ألفَ حسابٍ، ويطردونه من عقولهم ورؤوسهم، لأنّ مجرّدَ ذكرِه هو طاعونٌ يشلُّ حركتَهم.

كان أكثرَ ما يؤلِمُنا في السّجن عمومًا وفي مهجعِنا خصوصًا هو صديقنا (عطا).

عطا من إحدى بلدات الغوطةِ الشرقيّة، تخرّجَ في قِسم الفلسفةِ بجامعة دمشق، مُصابٌ بانفصام الشخصيّة أو بمرض قريبٍ منه، ولكن دلّلتُ على المرض بهذا الاسم لأنّه يتخيَّلُ دومًا أنّ لهُ شخصيّتَين، واحدةٌ في مهجعنا وثانيةٌ في المهجع المجاور. وأنّه نِصفان، كلُّ نصفٍ في مهجع، وأنّه يذوقُ الألمَ ضِعفَين، ويُضرَبُ مرَّتَين.

كان مصطفى يمازحه ويقول له: ليتَ أنّ نصفَك الآخر كان خارجَ السِّجن يا عَطا، فيأتي لنا بالأخبار، ويحملُ عن نصفِكَ الذي هنا.

ومهما يكن من الظّرافةِ واللطافةِ اللّتين يتعاملُ بهما معنا، إلّا أنّ حالتَه كانت توجِعُنا جميعًا، إذ إنّه كثيرًا ما يهبُّ من مكان نومِه ويصرخُ لأنّه يُجلَدُ في مكانٍ آخر، وكثيرًا ما كان يقولُ لنا: أنا «مُعَلَّم» هذه الليلة، لأنّه كان يتخيّلُ أنّه قد عُلِّم مِن شرّاقةٍ أُخرى، وكان يطلبُ من الطبيب قاسم حبّة الباراسيتامول لأنّ رأسه في المهجع الثاني يؤلِمه، وكثيرًا ما كان يُصِرُّ على أنّه جُلِدَ مئةَ كرباجٍ مع أنّه جُلِدَ خمسينَ فقط.

بل ووصلتْ رأفتُنا به إلى أن يقومَ بعضُنا بِحملِ العقوبةِ عنه إذا عُوقِبَ بالاسم، حتّى لا تتضاعف عقوبتُه.

وكان أوجَعَ ما عندَه كما كان يقولُ لنا: هو أنّ مَن يُعدَمُ من أصدقائنا، يُعدَمُ عنده مرَّتَين، ومن يُقتَل يُقتَلُ مرَّتين، فهو يُفارقُ مرّتين ويفقد مرّتَين، ويبكي مرّاتٍ عديدة.

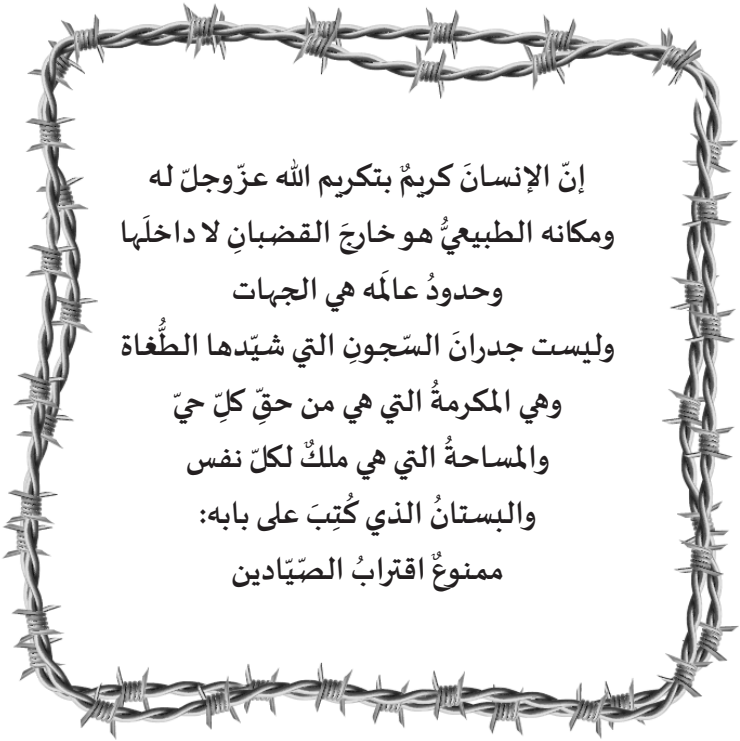
إنّ الإنسانَ كريمٌ بتكريم الله عزّوجلّ له
ومكانه الطبيعيُّ هو خارجَ القضبانِ لا داخلَها
وحدودُ عالَمه هي الجهات
وليست جدرانَ السّجونِ التي شيّدها الطُّغاة
وهي المكرمةُ التي هي من حقِّ كلِّ حيّ
والمساحةُ التي هي ملكٌ لكلّ نفس
والبستانُ الذي كُتِبَ على بابه:
ممنوعٌ اقترابُ الصّيّادين

أحَدٌ.. أحَد

هذا هو الأسبوع الثالث الذي يمرُّ علينا في صورةِ الموت، والموتُ أرحَم. شحٌّ في كلّ شيءٍ خَلا الإعداماتِ والتعذيب، لأنّك حين تفقد الماءَ فكأنّكَ فقدتَ الحياةَ معه، وإذا نقَصَ الماءُ نقصتِ الحياة معه، فإذا أمسكتَ بآخرِ قطراته، أمسكتَ بآخرِ رمقٍ فيك.

ثلاث كؤوس من الماء، هي نصيبُ أحدِنا في اليوم، ولكلِّ شيء، لوضوئه ولدورةِ المياه ولِشُربِه ولغسيل ملابسه، فإذا غسلتَ ثيابَكَ فعلى حسابِ نفسك، وإذا دخلت دورةَ المياه، فعلى حسابِ وضوئك. حتّى وجوهنا صارت تدلُّ على شُحِّ الماء، بصُفرتِها وشُحوبِها وغيابِ الابتسامةِ مِن عليها.

قال حمّود بشفتَيه الناشفَتَين حَدَّ الجفاف: هذا أقلُّ ما كان يمرُّ بسيّدنا بلالٍ الحبشيّ رضي الله عنه.

ـ يُذهلُني هذا الرَّجُل، كيفَ استطاعَ أن ينتقلَ من العبوديّةِ إلى الحرّيّةِ بِصَبرِ السّاعةِ والسّاعتَين، واليوم واليومَين!..

قالها مصطفى وهو يتلمّظُ شفتَيه من العطَش.

قال حمّود: بل بإرادةِ النَّفْسِ وإيمانِ القلب ومُكابَدةِ العذابِ اطمئنانًا إلى العَذْبِ بعدَه.

قال الشّيخُ هاشم: **أجملُ ما في الأمر أنّ بلالًا لم يمنح خَصمَه فُرصَةَ الشّعورِ بالغلَبة، فكان يعذّبُ أميّةَ بنَ خلَف بصبْره أكثرَ ممّا يعذّبه أميّةُ بسياطه، ويكوي أميّةَ بجَلَدِه، أكثرَ ممّا يكويه أميّةُ بجلداته. كان بلالٌ أقوى مِن جَلّاده، لقد كسَرَ سَوطَ سيّده بصَوتِ عُبوديَّته.**

قال حمّود: **أكادُ أتحسّسُ المكانَ الآنَ بيَديَّ لا بخيالي فحَسب. الصحراءُ الملتهبةُ الممتدّةُ تحت لحومِ الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم، والشّمسُ الحارقةُ أدنى إلى رأسِ بلالٍ مِن أيّ رأسٍ آخَر، وقَد عُرّيَ بلالٌ من كلّ شيءٍ إلّا من الإيمان، وقد وُضِعتْ على صدرِه كتلةٌ من النّار في صورةِ صخرةٍ عظيمة، وقد تعفّرَ وجهُه برِمالِ البطحاءِ كما تعفّرَ جسدُه بالدَّم، وأميّةُ فوقَ رأسه يطلبُ منه كلمةً واحدةً لا اثنَتَين، والمشركون ينتظرون لحظةَ انتصارِ أميّةَ بجبروته على بلالٍ بضعفه، ثمّ يشقُّ صوتُ بلالٍ صمتَ مكّةَ ويدوّي في بطحائها: أحَدٌ .. أحَد.**

ثلاثةُ حروفٍ أسكتَتْ كلَّ حجارةِ مكّةَ الملتهبةِ وسِياطِها، وجبروتَ صناديدِ قريشٍ وعنفوانَهم.

إذا أحدٌ تهــادَتْ منكَ مادَتْ
علــى أطرافِ مكَّتِهــم جِبالُ
إذا أحَــدٌ لهــا أحَــدٌ فأَهْوِنْ
بِما تَلْقــاهُ في اللــهِ الرِّجالُ

«ربّما كنّا وسنكون بحاجةٍ إلى جرعاتٍ إضافيّةٍ من إيمان بلالٍ حتّى نقطعَ هذا الشَّوطَ الذي خطَونا أوّلَ خطواتِه مُكرَهينَ مقهورين».. قالها براء وهو يسندُ ظهرَه ورأسَه إلى جدار المهجع.

ثمّ بتلقائيّةٍ وعفويّة، تحلّقنا حول الشيخ هاشم الذي استلمَ الحديث فقال:

إنّ الذي قال لنبيّه موسى: {وألقيتُ عليكَ محبّةً منّي} لن يتركَنا.

والذي قال لحبيبه محمّد: {ولسوف يعطيك ربُّكَ فترضى} لن يدَعَنا.

فثِقوا بالله وأحسِنوا الظّنّ. وكونوا مع الله في كلِّ لحظاتكم، فإنّ معيَّتَه كفيلةٌ بأنْ تبدّلَ حالَ القلبِ من أسوأ حالٍ إلى أفضل حال. وإنّ استشعارَ هذه المعيّةِ كفيلٌ بأنْ يُنسيَنا هذه الآلامَ التي كانت ستكون أثقلَ على النفسِ ألفَ مرّةٍ مِن لو أنّنا كنّا بعيدين عن اللهِ بقلوبِنا.

فنحنُ من أتباعِ الذي لم ينسَ صلاتَه حتّى وهو في بطنِ الحوت. ومن أتباعِ الذي لم ينسَ انكِسارَه لله، حتّى وهو يسمعُ تخوّفَ النّملِ من سطوته. ومن أتباعِ الذي لم ينسَ معيّةَ الله حتّى وهو محاصَرٌ في الغار، والعدوُّ على بابه.. نحن أقوياء، لأنّنا من أتباع هؤلاء.

سأل كمال: ماذا لو كان بلال الحبشيّ هنا، ولا يفصله عن الزنزانة (25) إلا بضعة أمتار؟

أجاب الشيخ هاشم: كان تحت سياط أميّةَ بن خلفٍ مباشرَةً، ولم يمنحه فرصةَ الفوز، وإنّي لا أرى النَّصرَ أكثر من ذلك.

إنّهم في هذا السّجنِ الذي لا يرحم يضربوننا كلَّ يوم أو كلَّ ساعةٍ ولا يشبعون من دمنا ولحمِنا وآهاتنا، بل ويكسرونَ عظامَنا وربّما رؤوسَنا ولا يشبعون ولا يكتفون؛ فلماذا كانت الزنزانةُ (25)؟

لكي يقولوا لنا بلغةِ الجبابرة: هنا سيتوقّفُ النفَسُ الأخيرُ الذي في صدوركم، وينتهي الرّمقُ الأخيرُ الذي في حلوقِكم، وتتوقّفُ اللحظاتُ الحيّةُ الأخيرةُ التي في قلوبكم.

حينها وقبْلَ ذلك؛ علينا أن نُريَهم، أنّ الزنزانةَ (25) هي كأيّ مهجعٍ من هذه المهاجع، وأنّ ما قبلَ الزنزانةِ (25) كما بعدَها، حينهاً سنسجّلُ انتصارَنا بغيرِ سيفٍ ولا سَوط.

سكت الشيخ هاشم وأخذ حمّود يغنّي بصوته الجميل وبحّته اللّافتة أبياتًا أجملَ من الصّوت ذاته:

سـأَهُزُّ جِذعَ عَقيدَتي لَأنـالَ مِن
رُطَـبِ الكـرامةِ للمَدَى عُنقـودا

وسـأملِكُ الدّنيـا بِنُورِ عقيدَتي
وأَصُـوغُ مِـن نَغَـمِ الأَذانِ نَشـيدا

خبَّأتُ نَفسـي فـي خَزائِنِ خَـالِقِي
وكفَـى بهـذا عِلْيَـةً وَصُعُـودا

أقفالُهـا ثِقَتـي بهِ وبِهَديـهِ
أَمضـي على نَهجِ الرّسـولِ رَشِـيدا

لا.. لَـن يَهُدَّ الظُّلـمُ أَوجَ عَقيدَتي
ما دُمـتُ أَملِكُ في الصّلاةِ سُـجودا

"اللعنة على الجهل المقدس»

هذه العبارة آخر ما نطق بها الفيلسوف الإيطالي «جوردانو برونو» بعد أن حكمت عليه الكنيسة بإحراقه حيًا.

وكان صامتًا لا ينطُق، حتى رَأى عجوزًا وهي تحمل خشبة ألقتها في النار قائلة باسم الله من دون أن تعرف شيئًا عن تُهمة الضحية سوى أنّهُ أمر الكنيسة!

المجزرة

كان هذا اليوم قطعةً من جهنّم. حتّى إنّ أحدَ الشَّبابِ قال: هل في جهنّمَ ما هو أقسى من هذا؟

حرٌّ شديدٌ وعطشٌ أشدُّ وجوعٌ أشدُّ من كلَيهما، فلأمرٍ ما قد حدثَ ليلةَ البارحة، فقد حُرمنا اليوم من وجبتَي الفطور والغداء، مع اقتحام أكثر من عشرة عناصر للمهجع الذي نحن فيه وضربِنا وجلدِنا بهمجيّةٍ لا تتركُ لنا أن نتخيّلَ أنّ في حيوانات الغاب همجيّةً أكبر.

الضربُ بالكرابيج والرّكلُ بالأقدام والدّعسُ على الرؤوس بالبساطير، كانت هذه هي اللغةَ التي تعاملوا معنا فيها لأكثر من أربعين دقيقة.

إنّهم انتهوا لتوّهم من عملِهم الإنسانيّ، وأغلقوا باب المهجع وانصرفوا مصحوبين بلعناتِنا التي لا تزول ولا تحول.

بعد كلّ وجبةِ تعذيبٍ كهذه، إن كانت في المهجع أو في الباحة، فلا تستطيع أن ترى مسرحَ العَمل إلا كومةً من رماد؛ نحنُ بحاجةٍ إلى لملمتها لنعودَ كما كُنّا قبلَها.

يشعرُ كلُّ واحدٍ منّا وكأنّه تناثر على مساحةٍ من الرّمل، وعليه أن يجمع بقاياه ليعودَ بشرًا سويًّا.

وكنتُ أشعرُ كما كان يشعرُ غيري أنّ كلَّ شِلوٍ من جسده قد نالَ حظَّهُ من الدّمار، وأنّ هناك ما هو أكثرُ من الوجع، لا يزالُ عالِقًا على لحمِه، بإمكانِكَ أن تسمّيه: قهر الرّجال.

كان (خالد العقلة) كغيره يلملمُ بقاياه، ويتأوّه آهاته الأخيرة قبل أن يلتفتَ إليّ ويقول: ممكن في أيّ لحظةٍ أن يتوقّف هذا القلبُ عن العمل، قالَها وضحك.

وخالد العقلة (أبو مدين) هو معتقَلٌ قديم، فقد كان في الدّفعة الأولى التي أتَوا بها إلى سجنِ تدمر. وهو من إحدى قرى ريف معرّة النعمان الشرقيّ، عضوٌ في حزب البعث العراقيّ (اليمين العراقي).

سألته: وما قصّةُ القلب الذي سيتوقّف عن العمل؟

قال: عندما اعتقلوني في إدلب، حوّلوني بعدها إلى دمشق، واستضافوني في فرع الحلبوني، واستقبلوني الاستقبال الحافلَ كالمعتاد.

لقد ضربوني ضربَ قاتلٍ ومقتول، أُغمي عليّ والدم ينزف من جبيني، ثمّ صحوت على صوت طبيب الفرع وهو يقول لهم: لا تقتلوه، لا تضربوه، فمن الممكن في أيّ لحظةٍ أن يتوقّف قلبُه عن العمل.

ثمّ ضحك مرّةً أخرى وقال: وما زال هذا القلبُ يقاومُ حتّى الآن.

ثمّ أتبعَ فقال: أذكر أنّني كنت في اليوم الذي يليه صائمًا، وعندما طلبَ المحقّقُ لي كأسَ ماء، قلت له: أنا صائم.

حينها صُدِم، وشعرتُ بالصدمة على قَسَمات وجهه الذي لا ماء فيه.

اِلتفَتَ إلى كاتب محضر التحقيق بجانبه وقال: إذا كان كلّ هذا الصّبر وهو صائم، فمتى سيعترف؟

أمّا عنّي فإنّني اهتززتُ من أعماقي عندما قال لي المحقّق وهو يضربني: أنتَ خائن.

أجبته حينها: أنا لستُ خائنًا، الخائنُ مَن يتعامل مع إسرائيل.

فصرخ في وجهي وقال: يا «عرص»، لو كنتَ مرتبطًا بإسرائيل لكان أشرف لك.

قاطعه الشيخ هاشم وقال: من حقّه أن ينزعج منك وقد ذكرتَ سيّدتَهم بسوء، فنظامنا في سورية هو الابنُ البارّ لإسرائيل، لا يعقُّها ولا يجرحُ جنابَها، وحافظ الأسد هو ربيبُ إسرائيل الذي لا يحيد عن إرضائها وإنْ كانت ألسنتُهم تقولُ غيرَ ذلك.

ثمّ من باعَ الجولانَ لإسرائيل وأعلن عن سقوط القنيطرة قبل أن تسقط غير حافظ الأسد صاحب البلاغ رقم 66؟

قال فيه: «إنّ القنيطرة سقطت رغم صمود جنودنا البواسل، إنّ الجيش ما يزال يخوض معركةً قاسيةً للدفاع عن كلِّ شبرٍ من أرض الوطن، كما أنّ هناك وحداتٍ من الجيش لم تشترك في القتال بعد، قد أخذت مراكزها».

قهقه كمال بصوتٍ عالٍ وقال: ربّما ما زالت تنتظرُ الأمر بالاشتراك حتّى السَّاعة هذه.

ثمّ أكمل الشيخ هاشم: حينها اتّصل وزيرُ الصّحّة عبد الرحمن الأكتع وكان في جولةٍ تفقديّة على الجبهة، اتّصل بوزير الدفاع حافظ الأسد وقال له: القنيطرةُ لم تسقط ولم يقترب العدوُّ منها.

يقول الأكتع: ودُهِشتُ حين شتمني حافظُ الأسد شتائمَ مُقذِعة، بل وهدَّدني إذا عدتُ لمثلها.

عاد أبو مدين ليقول: كان معي في المعتقَل فتاةٌ صيدلانيّة من رابطة العمل الشيوعي واسمها على ما أذكر (سناء الكردي). كانت تُضرَبُ أكثرَ ممّا أُضرَب، وتُعذَّبُ أكثرَ ممّا أُعَذَّب، ولكنّها كانت أصبرَ منّي، فلم تُدْلِ لهم بمعلومة ولم تعطِهم اسمًا واحدًا من أسماء رفاقها.

وكنتُ أقولُ في نفسي: **يجب أن أكون أكثرَ صبرًا منها.. نعم، في كثيرٍ من الأوقات تجدُ أضعفَ المخلوقات إلى جانبك وقد فاقكَ قوّةً وبأسًا، ليعرّفَكَ اللهُ إلى ضعفِك، ثمّ ليشدَّ من أزركَ في الوقتِ ذاته.**

وغالبًا ما تأتي المرأةُ بهذه الصّورة، لتعرفَ أنّكَ لستَ وحدك، وأنّ الذي رأيتَه ضعيفًا كان أقوى منكَ حينًا ما، وأنّ الأنثى التي خُلِقَت من ضِلعِك، قد جاءت في لحظةٍ ما لتجبُرَ كَسرَ ضلعِك أو لتقوّيَ لكَ ضلعًا على حافّةِ الانكسار.

قال أبو مدين: عندما زارتني أمّي وزوجتي في الفرع قبل تحويلي إلى تدمر، قلت لزوجتي: اذهبي فتزوّجي، فإنّ سجني طويل.

تنهّد أبو مدين تنهيدةً عميقةً وكأنّ ضِلْعًا من أضلاعه قد خرجت معها، ثمّ قال: إنّ كلمةَ أمّي لا تفارقني ولا أحسبها تفارقني، لقد قالت لي: أنا لا اخافُ عليك، نحن نخافُ علينا من بعدك.

كما لا تغيبُ عن ذاكرتي تلك اللحظاتُ التي اقتُطِعَت من الموتِ ونزلت على الأرضِ مُدَّةَ مَوتٍ أو أكثر.

ـ تقصدُ مجزرةَ حزيران؟.. سأله مصطفى.

ـ نعم، هي.

كانت صبيحةَ السابع والعشرين من حزيران/يونيو 1980م وكان اليومُ يومَ جُمعة، صباحٌ ليس فيه من معاني الصبح شيء.

بدأنا نشعر بسطوح المهاجع وكأنّها تتحرّك وتنقرُ على رؤوسنا لا بخرسانتها القاسية وإنّما ببساطير الجنود الذين أخذوا بالانتشار بسرعة. أرتالٌ من المشاةِ بحالها تدخلُ السِّجن، شعرنا بكثرتهم وهمجيّتهم ولو لم نرَهم.

كان الهواءُ ينقلُ إلينا أصواتًا لبِسَت الحديدَ والبارود من الساعةِ الثامنة وحتّى التاسعة. تلقيمٌ كثيفٌ للبواريد يصكُّ الآذان، أمرٌ غريبٌ ورهيبٌ يحدث الآن، إذ ليس من المألوف أن يدخل السِّلاحُ إلى السِّجن بهذا الكَمّ.

بدأت المجزرةُ بقنبلةٍ من يدٍ آثمة، أُلقِيَت في المهجعين الخامس والسادس. ثمّ فُتِحت أبوابُ النار وبدأتِ المحرقة؛ وتعالتْ أصواتُ التكبير من المهاجع المجاورة.

لا أبالغ إذا قلتُ لكم: إنّها لحظاتٌ لا تقطع الأنفاسَ فحسب، بل أكثر من ذلك، فلا تشعرُ أنّ للأنفاس مكانًا في المكان الذي أنت فيه، أو إنّك لا تتذكّرُ أن تتنفّسَ أصلًا، أو تقول في نفْسك: تنفّستُ أم لا؟

أسرعنا نحن الموجودين في المهجع إلى الباب، صرنا نتداخلُ في بعضنا البعض، ولا تسمع حينها إلّا: سامحْني.. سامِحوني.

كان صوتُ التكبيرِ يَخْفِتُ شيئًا فشيئًا، مع كلِّ تكبيرةٍ تنقطعُ كانت هناك نفْسٌ تُزهَق.

لقد سكتَ التكبيرُ تمامًا؛ لقد قُتِلوا جميعًا.

من السّاعة التاسعة حتّى الساعة الثانية عشر، ثلاثُ ساعاتٍ من النارِ والموتِ، كانتْ مؤرِّخَةً لأبشعِ مجزرةٍ حصلت في سجنِ تدمر، 850 شهيدًا. أكثرُ من عشرين مَهجعًا دخلت جهنّمَ لثلاثِ ساعاتٍ وخرجتْ منها بقمصانِ الدَّم.

انقطعت الكهرباء بشكلٍ كاملٍ وتكسّرت مواسيرُ المياه، وجرى الدّمُ من تحت الأبواب. يا الله! كأنَّ الدّمَ واقفٌ والزَّبدُ الأصفرُ على أطرافهِ ينعاه.

أجل، لقد وقف الدمُ في الممرّاتِ بين المهاجع ليلعنَ سافِكَه إلى يوم الدين. ولا يقفُ الدَّمُ كما وقفَ حينها إلّا إذا نامتِ الإنسانيّةُ أو ماتت.

أمّا عنّا فإنّنا جلسنا جامدينَ كأنّنا أمواتٌ أو أنّنا قِطَعٌ من جدران المهاجع لا أكثر.

في هذه الأثناء سمعنا صوتَ أذان الظّهر، نزلَ علينا كالماءِ بعد ظمأ، فبلّلَ منّا القلوبَ لا الثّياب. قُمنا وصلّينا الظُّهر، حتّى إنّه كان معنا أخٌ إيزيديّ، توضّأ وصلّى معنا كذلك.

كنتُ واحدًا من قليلين لم يستطيعوا البكاء، لم أستطع البكاء، أجل. **لقد كانت الدّمعةُ أكبرَ من العين، ولذلك فهي لم تسقط.**

كان ذلك النّهارُ ليلًا بكلّ ما فيه، وكان اللَّيلُ ليلَين. لم نكن نريد للشّمسِ أن تطلع، وكنّا نريد للّيلِ أن يبقى ويطول حتى لا نصحو على يومٍ جديدٍ وسِجنٍ جديدٍ وموتٍ جديد.

حينها أخذ مصطفى يدندن بأبيات طالما كنّا نسمعها، ولكن ليس بصوتِ مصطفى الجميلِ الذي يعطي للكلمات معانيَ تُضافُ إلى المعاني التي فيها:

يا ظلامَ السّجنِ خَيِّمْ
إنّنا نَهْــوَى الظلامَا
ليــسَ بعــدَ الليل إلا
فجرُ مجــدٍ يتَسَامى
إيــهِ يا دارَ الفخــارِ
يا مـقــرَّ المُخلِصينا
قــد هَبَطْنَاكِ شَــبَابًا
لا يهابــونَ المنونــا
وتَــعَاهدنا جَــميعًا
يومَ أقسَــمْنا اليَمِينا
لنْ نخــونَ العهدَ يومًا
واتخذنا الصدقَ دِينَا
أيها الحراس رِفـقًــا
واســمَعوا مِنّا الكَلاما
متّعُــونا بِهَــواء
منعُــهُ كَــانَ حَرَاما
لســتُ والله نَســيًّا
ما تقاسِــيه بِــلادِي
فاشْــهَدَنْ يا نَجمُ إنّي
ذو وفــاءٍ وَوِدادِ

يا رنينَ القـــيدِ زِدْني
نغمةً تُشـــجي فُؤادي
إنَّ في صَـــوتِكَ مَعنى
للأســـى والاضطهادِ
لم أكـــن يومًـــا أثيمًا
لم أخن يومًـــا نظاما
إنّمـــا حُـــبُّ بـــلادي
في فؤادي قـــد أقاما

ضحك أبو مدين ضحكةً منقوعةً بالّدم وقال: ما أبعد هذه الكلماتِ عن «هوّر يا بو الهوّارة»!

قلت: وما الذي ذكّرك بهذه الكلمات المصروعة؟

قال: هكذا كانوا يغنّون عندما كانوا يدوسون على الجُثث وهم ينقلونها في صبيحة اليوم التالي للمذبحة.

قلتُ في نفسي:...

نظر إليَّ أبو مدين وقال: ستقول في نفسِك هل في غريزةِ البهائم ما هو أحَطُّ من هذا وأقذر؟

أطمئنُك يا صاحبي، لا يوجد.

لقد كان معهم مساعدٌ كنّا نسمّيه: (أبو جهل)، كان يشكُّ سيخًا من الحديد في قلب كلِّ جثّةٍ يخرجونها من الباب، وكأنّه يريد أنْ يمتصَّ آخرَ الحياةِ من هذه الجثّة الهامدة. حتّى إنّهم وجدوا ثمانيةَ جرحى لم يموتوا، قتلوهم في اليوم الثاني إعدامًا بالرّصاص.

أجل، هكذا هم الطّغاة، يحاربونَ آخرَ رمقٍ فيكَ حتّى لا تدبَّ فيه الحياةُ من جديدٍ ويُصبحَ حياةً قائمةً بذاتها.

وهكذا هم الطّغاةُ، يخافون من المضغةِ الحيّةِ في جسدك، لكي لا تكبرَ وتصبحَ كابوسًا يُقلِقُ ليلَهم ويُفسِدُ عليهم نومَهم.

ما أقساها وهم يغسلون الدّم من الباحات في اليوم التالي!

ولكنّهم لم يقوموا بذلك إلّا بعد أن غسلوا ضمائرَهم من أدنى حظوظها من الشّرفِ والإنسانيّة.

بعد خمسةِ أيّام من انقطاع الكهرباء والماء، نقلونا إلى المهجع رقم (18)، كانتْ قِطَعُ اللّحم لا تزالُ عالِقةً على الجدران، لو نطقتْ كلُّ واحدةٍ منها لقالت: أنا بقيّةُ المظلوم تلعنُ ظالمَها.

وأمّا عنّي أنا، «كان لازم ميّت أربعين مرّة».

قالها أبو مدين وهو متّجهٌ إلى فتحة الجدار ، نظر صوبَ الزنزانةِ (25) وقال: أربعون زيارةً لي إلى الزنزانةِ (25)، تمّتْ دون أن أزورَها.

برسمِ القمعِ نولدُ يا بلادي
ويكتبُ نصَّ غربتنا الولاةُ
ويلبسُ من خيوطِ الشّام كَونٌ
وأهلُ الشّام وحدهمُ العراةُ
وهذا الغيمُ أمطرناهُ ألفًا
وما برحتْ خزائنَنا الزّكاةُ
سقينا من خَراج الأرضِ شعبًا
وأطعمنا ولا تقفُ الهِباتُ
وجُعنا حين ماتَ العدلُ شنقًا
وقام بأمرِ أمّتنا الزُّناةُ

أُحِبُّكَ مرّتَين

كأنّ يدَ أحدهم قد وكزتني حتّى استيقظتُ شِبهَ مرعوبٍ أو مخبول، لم أستطع أنّ أميّزَ اللَّيلَ عن جدار المهجع إلّا من خلالِ كمشةِ ضوءٍ ألقَت بنفسها أمامي، قادمةً من فتحةِ الجدار. يبدو أنّنا لم نمشِ في الليلِ طويلًا، فاللَّيلُ في أوّله.

في السجنِ أنتَ بينَ أمنيتَين تتنازعانِ قلبَك في كلّ لحظة، أو في كلّ ليل. لا تريد للزّمن أن يتوقّف ولا للَّيلِ أن يطول، وفي الوقت ذاته لا تريدُ للصّباح أن يأتي ولا للشَّمسِ أن تشرِقَ وأنتَ هنا.. شعوران يتناوبان على قلبِك بألمِهما وثِقلِهما.

استيقظتُ على تمتماتٍ من جهة الشيخ هاشم، وتأوّهاتٍ من جهةِ (عَطا). فحالُ عطا تزدادُ سوءًا لَيلًا بعد ليلٍ وشمسًا بعدَ شمس. وكان همسُ دعاءِ الشيخ هاشم يتناهى إلى سَمعي بدفئه وروحه، وكأنّني استسلمتُ بكلِّ ذرّةٍ في كياني لهذا الهَمْسِ القادمِ من زاويةِ المهجع.

كان يقول:

اللّهمّ أعطِنا اليقينَ الذي أعطيتَه لنبيّك موسى وهو يقول لأتباعه:

{كلّا إنّ معيَ ربّي سيهدين}.

وأعطِنا الإيمانَ الذي أعطيتَه لنبيّكَ محمّدٍ وهو يقول لصاحبه:

{لا تحزنْ إنّ اللهَ معنا}.

يا الله، كأنّني كنتُ على وعدٍ مع هذه الكلمات، وقد أُنجِزَ الوعد. أو أنّني كنتُ بأمَسّ الحاجة لسماعها، وقد سمعتُها، فنزلَتْ على قلبي كحَبّاتِ البرَد النّاعمة. اللَّيلُ غطاءٌ ثقيل، تزيد من ثقله تأوّهاتُ (عطا) العميقة.

تركتُ مكاني واتّجهتُ نحوَه، كان حمّود قد سبقني إليه دون أن أراه في عتمة المهجع الحالكة.

كان حمّود يربّت على كتفه ويمازحه:

ـ هل ضربوك في مكانٍ آخَرَ اليوم؟

ردّ (عطا) بضحكةٍ خافتةٍ قطَّعَتها آهاتُه:

ـ حين تنزعُك الحياةُ من الحياةِ تقعُ الكارثة، وحين يسلُّ القهرُ بعضَكَ من بعضك، فإنّه لا يسلُّ غيرَ الرّوحِ من روحِها. فوّهاتُ بنادقِ زوّارِ الليل ماتزالُ حتّى اليوم وكأنّها تنغرزُ في رأسي وهم يداهمون بيتَنا المتطرّف عن القرية.

نهضتُ من فراشي وخرجت من الغرفة دون وعي، كان أبي ملقىً تحت أقدامهم، وماذا يبقى لك من كرامتك إذا دِيسَتْ كرامةُ أبيك؟!

أمّي وأختي محاصرتان في زاويةِ غرفة العائلة المفتوح بابُها على أرضِ الدّار، وبارودتان فوق رأسَيهما، ولا تسمعُ منهما إلّا بقايا بكاء.

كُلُّ ما أعرفُه عن أخي التّوءم وشقيقِ روحي (رِضا) أنّه بقي في غُرفته ساهرًا يدرسُ، استعدادًا لامتحانِه في اليوم التّالي في كُلّية الهندسة الكهربائيّة.

وكلُّ ما أعرفه عن رأسي حينذاك، أنّ كلماتِ أبي قد اصطدمت به وانغرسَتْ فيه كحربةِ بندقيّة أو أقسى: «ليش قتلتوه؟ هادا طالب جامعة».

عرفتُ أنّهم قتلوا بعضي، وكانت بواريدهم وكلبجاتهم وركلاتهم حائلًا بيني وبين أن أتفقّد جزئي الذي قتلوه.

ثمّ حمدتُ اللهَ على أنّني لم أرَه، حتى لا تكون آخِرَ صورةٍ له في ذاكرتي هي صورتُه وهو مُضرَّجٌ بدمه، أو قُلْ بِدَمي.

كم كانت ستكونُ قاسيةً عليَّ في سَنواتِ سِجني؟!

فلم تكن حينها لترتسمَ في مخيّلتي إلا بمقدار ما سينسكبُ دمُه فيها.

ولن أستطيعَ حينها أن أتخلّصَ منها أو أنتزعها منّي إلا بمقدار ما أنتزعُ نفْسي من نفْسي أو نفَسي مِن نَفَسي أو كياني مِن كلِّ ذرّةٍ في كِياني.

بكى (صباح) الشّابّ العراقيّ الأنيق، والذي استيقظ لتوّه، فدشكته (العازل) بالقرب من دشكة (عطا). وعندما حاولت تهدئته أخذ يغنّي بصوته العراقيّ الجميل الذي تحسّ كأنّ كلّ ماء دجلة ينسابُ فيه عذوبةً وسحرًا... وحزنًا:

أحِبُّــكَ مرَّتيــنِ ومرّتَيــنِ
وأكثــرَ منهما يا مــلءَ عيني
وكنتُ ظننتُ انّ الحُبَّ سهلٌ
فيا ويلي أنا مِن حُســنِ ظنّي
وكنتُ أقول: أنسى، ثمّ أنسى
بأنّــي قلــتُ: أنســاهُ وأنّــي
وأهــربُ منــه حتّــى لا أراهُ
فألمَــحُ طيفَــهُ بينــي وبيني

صباح، شابٌّ عراقيّ جاء إلى دمشق، وإلى جامعتها على وجه الخصوص، بنيّة إكمال تعليمه العالي في قسم التاريخ بكلّيّة الآداب، غير أنّ المخابرات السوريّة اعتقلته بتهمة اليمين العراقي والعمل لصالح دول معادية.

أبكانا صوتُه كما أبكَتنا كلماتُه، أمّا (عطا) فقد وقفت الدموع في عينيه كحرّاسِ لَيل.

سألتُ (صباح) ممازحًا:

ـ هل هذه الأبيات لحبيبةٍ أمْ للعراق؟ وهل هي بكسرِ الكاف في (أحبّك) أم بفتحها؟

ـ أجاب: وهل يتركُ لنا الطُّغاةُ وقتًا لكي نُحِبّ؟

هم يستكثرون علينا دقّاتِ قلوبنا الطبيعيّةَ يا صديقي، فكيف إذا كانت هذه الدّقّاتُ عن حُبّ؟

هم يقاتلون الحُبَّ فينا، لأنّ الحُبَّ مولّدٌ للحُرّيّة. أجل، يقاتلون الحُبَّ لأنّه عدوّهم الأوّل، وهو الذي يجعلُك تنطلقُ إلى فضاء هذا العالَم لتُبدِعَ ولتقولَ ولتفعلَ ولتُنجِز.

ولأنّ الحُبّ هو الذي يطيرُ بقلبكَ إلى ما وراءَ الجِهاتِ وهم لا يريدون لقلبِكَ أن يكون خارجَ قضبانهم.

ولأنّ الحُبَّ هو الذي يدفعُك للتّغيير، وهم لا يريدون منك أن تتغيّر إلّا كما يريدون وإلى النقطة التي يريدون.

في هذه الأثناء، اقتحمت مجموعة من العساكر مهجعَنا، بينهم ضابطٌ برتبة نقيب، لم نشاهده قبلَ اليوم، لم نستطع أن نعود إلى أماكننا، فقد نزلوا علينا كالصّاعقة، وها هم في وسط المهجع واقفين كأحكام الإعدام.

أخرج الضّابطُ من جيبه ورقة، وبدأ يذيع أسماء الموجودين هنا:

ياسر عز الدين.. موجود

نائل الشيخ حسن.. موجود

صفوك العلي.. موجود

علي الحريري.. موجود

وعدّ ستّةً وعشرين اسمًا، ثمّ قال: جهّزوا أنفسكم للانتقال إلى المهجع السّادس غدًا صباحًا، وخرج هو وعساكره.

ساد الجَوَّ صمتٌ رهيب، حتّى الأنفاسُ انعقدَت في الصّدور. أحسَسنا فجأةً بالفراغ الذي يسبق الفراغ، وبالرَّحيل الذي يسبقُ الرّحيل، وبالوداعِ الذي هو أقسى من الوداع.

التفتَ (صباح) نحوي وقال: أرأيتَ يا صديقي؟

«هم لا يريدون لحُبّكَ أن يتمَّ ويبقى حتّى وأنتَ في سِجنِك.

هم لا يريدون لكَ أن تتعلَّقَ بغير الموتِ وطعمِ الموت.

هم لا يريدون لك أن تُحِبَّ لكي لا يتنفَّسَ قلبُكَ غيرَ هواءِ القهر.

هم لا يريدون لكَ أن توزّعَ قلبَك حتّى على سجينٍ مثلك، ولكنْ عليك أن تحبسَه في صدرك كما حبسوكَ هنا».

توزَّعَ الصَّمتُ علينا جميعًا، على المُقيمين وعلى المُرَحَّلين، وكأنَّ قرارَ الترحيل قد أُذيعَ علينا جميعًا، وبأسمائنا جميعًا.

همدَت أجسادُنا في أماكنها، ولمعت الدّموعُ في عيون كثيرين منّا.

همَّ بعضُ الإخوة الذين أُذيعَت أسماؤهم إلى ضبضبة أغراضهم وصرّها.

يمان تقي.. وضع الصُّرَّةَ تحت رأسه وقال: لم أكن أعلم قبْلَ اليوم أنّ عندي وسادة.

سلّام الغالي.. تكوَّرَ على نفسه وهو يتمتم بكلماتٍ ظاهرُها الضَّحِكُ وباطنُها العذاب:

كنت أسمعهم يقولون: «فوق الموتِ عَصّةُ قَبر»، إلى أن فهمتُ معناها الآن.

ثمّ تابع: **بعدَ كُلِّ هذا القهر والسّجنِ يأتيكَ الفراق، وكأنّ هناك مساحةً في جسدكِ وقلبك لم تمُرَّ عليها سرايا الألَم والوجع، حتّى يأتي الفراقُ فيطؤُها بقدمَيه.**

أو كأنّك لن تصلَ إلى نقطةِ الموتِ المرسومةِ لك حتّى تُفارِق.

ثُمَّ إنّ هذا هو الفراقُ الحقيقيُّ الذي لا يدعُ لكَ شِبرًا لا قهرَ فيه، فأنتَ تغادِرُ سِجنَكَ إلى سجنٍ آخر، وتفارِقُ مسجونين لتتعرَّف إلى مسجونين آخَرين، وتتركُ قِصَصًا من الألَمَ والموتِ لتتعرَّفَ إلى قِصَصٍ جديدةٍ من ألمٍ وموتٍ مثلهما أو أقسى منهما.

جاء الصباحُ الذي لم نردْ له المَجيءَ أكثرَ من أيِّ صباحٍ قَبْلَه لم نُرِدْ له أن يجيءَ كذلك.

مجموعةٌ من العناصر يدخلون المهجَعَ وفي أيديهم الهراواتُ والكرابيج، وكأنّهم يريدون أن يسوقوا قطيعًا من الأغنامِ إلى المسلَخ.

رقيبٌ كبيرُ الرأسِ غليظُ معاني الوجه في عينه اليُمنى زُرقة، بدأ يذيعُ أسماءَ المُرَحَّلين.

كان كلُّ من يُذاعُ اسمُه يتوجّه نحوَ البابِ ليخرج منه تحت ضربات الهراوات والكرابيج أو ركلات العناصر المرافقين للرّقيب لهذا الهدف.

انتهى الترحيلُ وبقينا في المهجَعِ عشرينَ واحدًا فقط، فعرفنا أنّنا على موعدٍ مع فَرْطِ المهجع (ترحيل المهجع) قريبًا.

صاح أحدُ العناصر بأعلى صوته: تنفُّس.. تنفُّس.

خرجنا من المهجع كما خرج رفاقُنا قبْلَ قليل.. تحتَ الضّرب والشتائم.

الآن صار بإمكاننا رؤية الزنزانة (25) عِيانًا وبطريقة مباشرةٍ دون استراقِ النّظرات من فتحة الجدار.

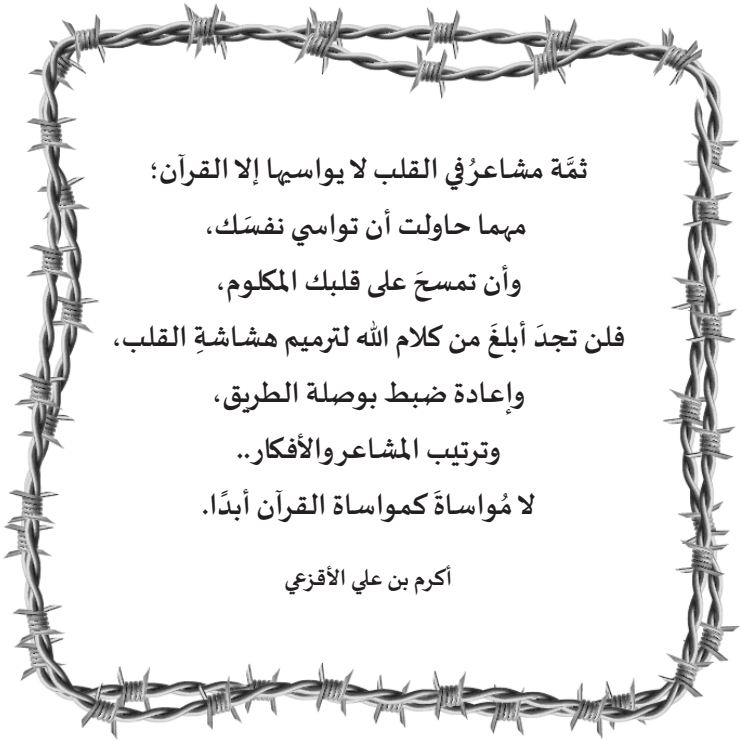
ثمَّة مشاعرُ في القلب لا يواسيها إلا القرآن؛
مهما حاولت أن تواسي نفسَك،
وأن تمسحَ على قلبك المكلوم،
فلن تجدَ أبلغَ من كلام الله لترميم هشاشةِ القلب،
وإعادة ضبط بوصلة الطريق،
وترتيب المشاعر والأفكار..
لا مُواساةَ كمواساة القرآن أبدًا.
أكرم بن علي الأقزعي

سورة الرحمن

صار مهجعُنا يُشبهُ إلى حَدٍّ كبيرٍ الساعةَ الرمليّةَ التي ينزل رملُها من أعلى الى أسفل ببُطءٍ شديد، ولكنّه ينزلُ على كُلِّ حالٍ حتى ينفد، وكذلك حالُ مهجعِنا مع الزنزانة (25).

ولأكون أكثرَ دِقّةً، فهذا كان حالَ البعض الذين أخذَ أملُهم ينفدُ رويدًا رويدًا كرملِ السّاعة تمامًا. فما حصلَ اليوم، كان فوقَ كلمات المواساةِ التي تواسي، أو عبارات الصّبرِ التي تُصَبِّر.

فقد دخلَ ثلاثةُ عناصر بينهم رقيبٌ إلى المهجع بعد رفسِ البابِ بقوّة وفتحه بهمجيّتهم المعتادة. كانوا يحملون في أيديهم بدلاتٍ حمراء (ثياب الإعدام)، ألقَوها على الأرض وكانتا بدلَتَين، ثمّ صاح الرّقيبُ بأعلى صوته: «هدول بردَعتين لحمارين منكن».

ثمّ قرأ من ورقةٍ في يده اسمَين لاثنَين من رفاقنا، رفاق السِّجن والدَّم والقهر والجوع والشّدّةِ والدّموع والأمل: محمود خوجة من حلبَ، وعصام وزان من حلب، وكانا طالبَين في جامعة حلب عندما اعتُقلا وجيءَ بهما إلى هذا القَبر.

خرج الرقيبُ ومن معه من المهجع بعد أن أغلقوا الباب وهم يضحكون ويقهقهون.

يا الله! كيف تحوَّلَ المهجعُ في لحظةٍ واحدةٍ إلى مستنقعٍ ألَم، وكأنّ المهجعَ برمّته قد أصبحَ جُرحًا ساخنًا ينزفُ، وسوطُ غليظٌ يشربُ من دمه.

محمود وعصام ينظران إلى البدلتَين اللعينتَين بعينَين جاحظتَين، ونحن ننظرُ إليهما تارةً، وإلى البدلتَين تارةً أُخرى.

قال محمود بصوتٍ واثقٍ مطمئنّ: الحمدُ لله، اللهمّ ميتةً في سبيلك، ومَرَدًّا غير مُخزٍ ولا فاضح يا ربَّ العالمين.

نهض عصام باتّجاه الثّوب الجديد، حملَ البدلةَ وقلّبها بين يديه وقال:

اليوم سأجرّبُ المشيَ إلى الزنزانة (25) لأوّل مرّة منذ عشر سنوات، وسأقيس المسافةَ بالأنفاسِ لا بالأمتار، سأقيسُ طولَ الظُّلم نفَسًا نفَسًا.

بعد هذا اليوم، لن أنتظرَ زيارةً من أُمّي ولا من أبي ولا من أخي، كلُّ ما أتمنّاه أن يعرفوا قبري يومًا ما، لكي يزوروني هناك.

ثمّ أخذ يغنّي أبياتًا لهاشم الرّفاعي:

لَــمْ تَبْــقَ إلاّ ليلةٌ أحْيــا بها
وأُحِــسُّ أنَّ ظلامَهــا أكفاني

وأكونُ بعــد هُنَيهةٍ متأرجِحًا
بالحَبلِ مشــدودًا إلى العيدانِ
سَــتَمُرُّ يا أبتاهُ لستُ أشكُّ في
هذا وتَحمِــلُ بعدَها جُثماني

جلسَ عصام على الأرض، وأسند ظهرَه إلى الجدار وقال:

أيّها الأصدقاء، لم يبقَ لنا معكم إلّا ساعةٌ أو ساعتَان، وكلُّ ما أريده منكم أن لا تنظروا إلينا بعينِ الشّفقة، أو تنظروا إلينا على أنّنا ميّتان.

قال حمّود بصوته المتحشرج: أنتم الأحياءُ يا عصام، ونحن الأمواتُ من بَعدكم. هل نحنُ وأنتم في أحسن حالاتنا؛ ميّتانِ يودّعانِ أمواتًا؟

ـ أرجو ألّا يكون كذلك يا أحبابي.. قالها محمود وهو يتفحّصُ ثوبَه الجديدَ.. والأخيرَ بيديه.

قال الشيخ هاشم: ما دمتما حَيَّين فلستما ميّتَين، حتى إذا انقضى الأجلُ أصبحتُما حَيَّين بشهادة اللهِ عزّ وجلّ، وهو خيرُ الشّاهدين: {ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل اللهِ أمواتًا، بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزَقون}.

وأمّا عنّي فلم أنبِس ببنتِ شَفَة، لأنّ دمعتَين كبيرَتين كانتا تقفان في عَينَيّ، وكنت أخشى إذا قلتُ شيئًا أن يفضحاني.

عادَ عصام ليغنّي بصوتِه الجميل الذي لم نسمعه منه قبلَ اليوم:

هذا دَمِـي سَيَسِـيلُ يَجْـرِي مُطْفِئًا
مـا ثـارَ فـي جَنْبَـيَّ مِـنْ نِيـرانِ
وَفـؤادِيَ المَـوَّارُ فـي نَبَضاتِـهِ
سَـيَكُفُّ في غَـدِهِ عَـنِ الْخَفَقانِ
وَالظُّلْـمُ بـاقٍ لَـنْ يُحَطِّـمَ قَيْـدَهُ
مَوْتـي وَلَـنْ يُـودِي بِـهِ قُرْبانـي
وَيَسـيرُ رَكْـبُ الْبَغْيِ لَيْـسَ يَضِيرُهُ
شـاةٌ إِذا اْجْتُثَّـتْ مِـنَ القِطْعـانِ

لم يرحمْنا صوتُ عصام، ولكنّه سحبَ دموعَنا من عيونِنا جميعًا، فلم يبقَ منّا أحدٌ لم يجهش بالبكاء، حتّى الشيخ هاشم الأكثرُ صبرًا بيننا.

لبس محمود وعصام ثوبَيهما الجديدَينِ وجَلسا.

قال محمود مبتسمًا: ها قد تميَّزنا عنكم بلَون الموت.

قال مصطفى: بل بلَونِ الشّهادةِ يا صديقي.

ـ كنتُ أسمعُ أبي وهو يقول: «**بمجرَّد أن تقاوم فأنتَ منتَصِر، مهما كانتِ النتائج فالسّكوتُ أمام الظالمِ والمستبدّ هو الخسرانُ بعينه**».. قالها محمودُ وهو يتلمَّسُ جدارَ المهجعِ بيمينه، والدموعُ تلمعُ في عينَيه،

ولكنّه كان يحبسها حتّى لا يكون آخرُ عهده بنا وهو يبكي.

كانت هذه اللحظات هي اللحظات الأسوأ في تاريخ مهجعنا، فللمرّة الأولى يُساقُ أحَدٌ من مهجعنا إلى الزنزانة (25)، أيْ يُساقُ إلى الإعدام. لحظاتٌ تتنفّسُ فيها ولا تتنفّس، وترى فيها ولا ترى، وتسمعُ فيها ولا تسمع.

كلُّ الوجوه في المهجع أصبحتْ صفحاتٍ تَقرأُ فيها المأساةَ بمعانيها الحقيقيّة، وصرت تحسّ بانعدام الطاقةِ في الأجسام، فلم يبقَ في أحدنا طاقةٌ على الكلامِ ولا علَى الحركة.

نهض عصامُ من مكانه ليجلسَ بجانب الشيخ هاشم ويقول له: اِقرأ عليَّ سورةَ الرّحمن يا شيخ هاشم، فأنا بشوقٍ لأن أسمعَها من غيري. قالها عصام فتسلّلَ شعاعٌ من الهمّةِ إلى أرواحنا وأجسادنا بغير إذْن.

تذكّرتُ مباشرةً ما قاله لنا براء السرّاج ذاتَ مَرّة:

«طريقة تصميم سجون الأسد تجعلُكَ تعيش في خوفٍ دائم لا ينقطعُ ليلَ نهار، فجاء القرآنُ فحجَّمه إلى عدّة ساعات. لاً أتكلّم هنا عن الإيمان واليقين فذلك أثرٌ مُوازٍ، بل عن قُدرة هذا الكتاب على إيقاد الذهن في التأمُّل في تفصيل آياته وفواصلها وترتيب مواضيعه ترابطًا وتباعُدًا، ومواضع كلماته وحروفه دقّةً ومَغزىً، في التِفات خطابه، في حقيقته ومجازه، كُلٌّ يأسر الذِّهنَ

بعيدًا عمّا يجري وراء باب المهجع مِن أهوال. لم يصمد غيرُه في ظروفٍ كهذه، فكأنَّ مقدارَ ذلك البلاءِ قد قِيس بمقدار ما تحمله من سلاح الآيات. ومَن حفظه لمُجرَّدِ مُواجهةِ أهوالٍ فسينساه بزوالها».

فرغَ الشيخ هاشم من قراءة سورةِ الرّحمن، وكسا الخشوعُ المكانَ بكِسوته، حتّى لكأنّنا لم نسمع سورةَ الرّحمنِ قبلَ اليوم، ولا سمعنا الشيخَ هاشم يقرأ القرآن.

قام محمود وعصام لتوديعِنا، وقُمنا جميعًا وكأنّنا نشيّعُ مَيْتَين واقفَين على أقدامِهما.

فُتِحَ البابُ برفسةٍ من أحَدِ عُنصرَين دخلا المهجع، صاح أحدُهما بصوتٍ عالٍ: محمود خوجة، عصام وزان، «يالله ولاك».

خرجا معًا تحت الضَرب واللّطم، وأمّا أنا فالتفَتُّ إلى الجدار حتى لا أراهما وهما خارِجَين للمرّةِ الأخيرة.. وللموتِ الأخير.

وكأنّ الصَّمتَ طائرٌ واقفٌ على رأس كلِّ واحدٍ منّا، أو كأنّه حجرٌ وقد أَلقمَ أفواهَنا جميعًا.

لقد كانت هذه هي المرّةَ الوحيدة التي لا يتسابقُ فيها (ناجي) و (كمال) إلى فتحة الجدار ليرَيا بابَ الزنزانة (25) وهو يُفتَح.

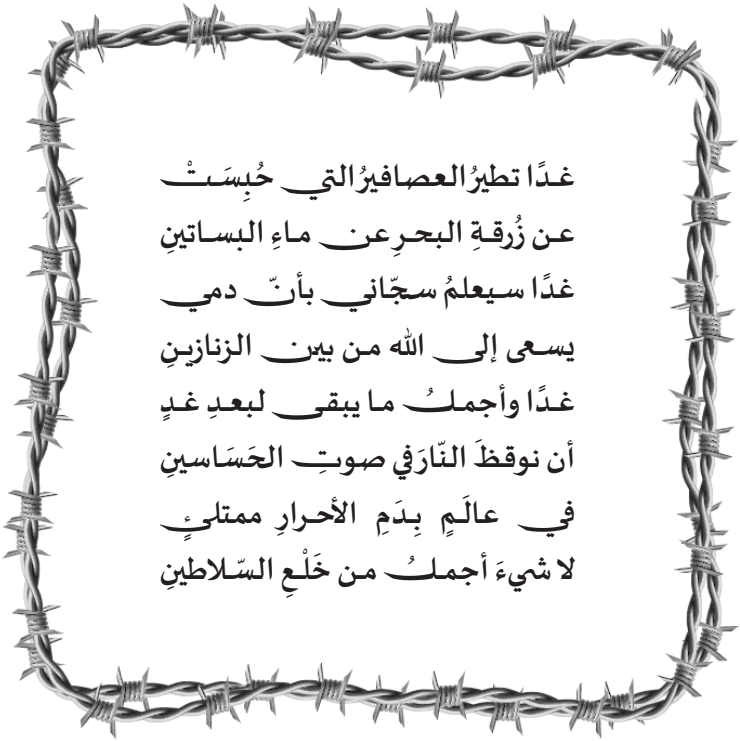
غدًا تطيرُ العصافيرُ التي حُبِسَتْ
عن زُرقةِ البحرِ عن ماءِ البساتينِ
غدًا سيعلمُ سجّاني بأنّ دمي
يسعى إلى الله من بين الزنازينِ
غدًا وأجملُ ما يبقى لبعدِ غدٍ
أن نوقظَ النّارَ في صوتِ الحَسَاسينِ
في عالَمٍ بِدَمِ الأحرارِ ممتلئٍ
لا شيءَ أجملُ من خَلْعِ السّلاطينِ

فنُّ الحرب

كان هذا اليوم مُقتَطعًا من النّار، فلا هواؤه هواءٌ، ولا ماؤه ماءٌ. وكانت المرّةَ الوحيدةَ التي لا يُسرعُ أحدٌ منّا لينظر إلى باب الزنزانة (25)، كي لا نرى (محمود) و(عصام) وهما يُغادرانها إلى ساعتهما الأخيرة.

أجَل، لقد فُتِح بابُ الزنزانة (25) لِتَوّه، كان صوتُه اليوم أثقلَ علينا من أيّ يوم آخَر، وكأنّه وهو يُفتَح كان يُغلِقُ على أنفاسِنا منافِذَ الهواءِ والحياة. وكانت القيودُ في أقدامهما وهما في طريقهما إلى المشانق، تُسحَب على عيوننا وأعناقِنا لِتثقِلها على القلوب والنفوس. هذا ما أحسسته وقرأته على وجه كلِّ واحدٍ منّا، باستثناءِ الشيخ هاشم الذي تركنا مع عذابِنا وقام للصَّلاة.

لقد أعدموا محمود وعصام.. عرفنا ذلك من أصوات التكبير التي انطلقت من كلِّ المهاجع قَبْلَ مهجعنا الذي لم يراقب أحدُ سجنائه الساحةَ الرئيسيّةَ ولا رأى أحدٌ منّا لحظةَ تنفيذِ الموت.

وبدأنا نحن في المهجع بالتكبير، حتّى وكأنَّ جدران المهجع صارت تتجاوب معنا وتكبّر. لقد شقَّتِ التكبيراتُ ثوبَ الصمت وشظَّتْ هواءَ الخوفِ فلم نَعُدْ آبهينَ بالنتائج.

عندما ارتفعت وتيرةُ التكبير المنبعثِ من المهاجع الأُخرى، عرفنا أنّهم أنزلوا (محمود) و(عصام) من على أعواد المشانق لنقلهما بسيّارة الزيل العسكريّة إلى المقبرة الجماعيّة بجوار السِّجن.

اقتحمت الكلابُ علينا المهاجع، وأخرجونا إلى السّاحات، وبدأت حفلةُ التعذيب التي لم يمرَّ علينا بألمها وهمجيّتها قبلَ اليوم عقوبةً لنا على تكبيرنا. وضعونا في طوابير حتى لا يسلمَ أحدٌ من همجيّتهم، وكأنّ كلَّ واحدٍ منّا صار هو المقصودَ بعينه. مرّت ساعتان كأنّهما سنتان، ساعتانِ لم يتكلّم فيهما إلّا الوجَعُ والسّياطُ وبُقَعُ الدَّم التي ملأتِ الساحات.

دخلنا المهجعَ تحتَ الضرب والرَّكلِ كذلك، ونزعنا ما علينا من ثيابٍ عدا ما يستر عوراتِنا، لتنكشفَ المحنةُ عن لحومٍ مشوَّهةٍ ودماءٍ نازفةٍ وجراحٍ كالخرائط.

صارتْ آهاتُنا وكأنّها دُخانٌ يملأ أركان المهجع من بابه إلى محرابه. أمّا (كمال) فقد قام إلى حنفيّة الماء (الصنبور) البارز من الجدار بجانب المرحاض، وصار يمتصُّ منه بقايا الماء وكأنّه يلتقطُ آخرَ أنفاسه.

رجع كمال غاضبًا ليضربَ جدارَ المهجع بقبضته ويقول: لماذا أهل الحقِّ مقموعون؟

ولماذا يمدُّ ربُّكم للظالم كلَّ هذا المَدِّ حتى يفتتنَ أهلُ الحقِّ فلا يبقى في قلبِ واحدهم ذَرّةٌ من الإيمان بعدله؟

ولماذا على هذه الدّنيا أن تمرَّ بسرايا قهْرِها وظُلمِها على قلوبِ وأجساد المظلومين حتّى يومها الأخير؟

ولماذا يُقاسِمُ الطاغيةُ اللهَ في جبروته ولا ينتقمُ اللهُ لنفسه؟

وضعَ (حمّود) يدَيه على أذُنَيه حتّى لا يسمع مزيدًا من كلام كمال.

فرغَ الشيخ هاشم من صلاته والتفتَ إلى كمال وقال له:

حتّى يُمحّصَ اللهُ المؤمنين من غيرهم ويميزَ الخبيثَ من الطّيّب.

ـ وهل الطّيّبُ لا يمتاز عن الخبيث إلّا على أعواد المشانق؟

ثمّ ما الفائدةُ إذا كان التمحيصُ على حافّةِ المقبرة الجماعيّة بجانبِ هذا السّجن؟.. سألَ كمال، وهو يتلمَّسُ ظهرَه المسلوخَ من الجَلد.

ثمّ عاد ليقول:

ـ هذا ما جرَّه علينا الإسلامُ السياسيّ.. نعم، هذا ما أراده أتباع الإسلام السياسيّ، وهذا ما جنيناه نحن وحصدناه. هذا ما أراده الذين لم يكتفوا بالدّين عقيدةً، بلْ أرادوه كرسيًّا.

ردَّ عليه الشيخ هاشم:

ـ إذا كانت هذه هي جريرةَ الإسلام السياسيّ، فلماذا أنتَ هنا يا صاحبي؟

هذه جريرةُ الطغيانِ الذي يرى في كلِّ من يطلبُ حرّيّتَه عدوًّا له، وفي كلِّ من يريد أن يتنفَّسَ خصمًا له.

أعتقدُ أنّك يا صديقي (كمال) غيرُ منتسبٍ إلى تنظيمٍ دينيٍّ إسلاميًّا كان أو غير إسلاميّ، فلماذا جاؤوا بكَ إلى هنا؟.

ثمّ لماذا معنا هنا الملحِدُ والشيوعيُّ والمسيحيُّ؟

هل هؤلاء المظلومون من أبناءِ الإسلامِ السياسيّ؟

قال كمال:

دُلُّوني على مشكلةٍ لم يكنِ المسلمونَ سببًا من أسبابها، دُلُّوني على حربٍ لم يكنِ المسلمونَ طرفًا فيها، ولم يكنُ الإسلامُ والإسلامُ السيّاسيُّ هو من أشعلَ فتيلَها منذ أنْ جاءَ الإسلامُ إلى الآن.

ضحكَ الشيخُ هاشم وقال: وقبْلَ الإسلام، ماذا عن الحروبِ التي وقعَت والدِّماءِ التي سُفِكَت؟

قال كمال: حدِّثني عن الحروبِ الكُبرى التي وقعت والتي سمعنا بها.

قال الشيخ هاشم: تكرم يا كمال، سأحدِّثُك فاسمَعني بقلبِك:

أكّد الكثيرون من القادة العسكريين أنّ الكثير من المذابح التي وقعت في الحرب العالمية الأولى، كان يمكن تجنّبها لو توَفَّر كتاب (فنّ الحرب) للقادة العسكريين والمخطّطين ومتخذي القرار العسكري حينذاك.

مع أنّ كتاب (فنّ الحرب) لسون أتزوكان قد ترجمه الدكتور ليونيل جيلز عن الصينيّة لصالح المتحف البريطاني ونشره عام 1910، أي ما قبل الحرب العالميّة الأولى.

ولنفترض أنّه لم يكنْ قد وصلهم بهذه السرعة، فهو على أقلّ تقدير كان متوافرًا وبكثرة قبل الحرب العالمية الثانية التي وقعت فيها مجازرُ هي الأبشع في تاريخ البشريّة وأكثر سوءًا وبشاعةً من مجازر الحرب العالمية الأولى. ذلك لأنّ الحمير تأكلُ أوراقَ الكتب ولا تقرؤها.

الحرب العالميةُ الثانية التي راح ضحيَّتَها أكثرُ من (50) مليونًا خلالَ خمسِ سنوات.

ويقولون عنّا: إنّنا إرهابيّون، ولا قيمةَ للدماء في عقيدتنا.

لقد أوصى أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه عساكرَ المسلمين المنطلقين إلى فتح الشام فقال لهم: «لا تخونوا ولا تغلُّوا، ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكلة... إلى آخر الوصية».

وعندما دخل الروس برلين بعد سقوطها قام جنود الجيش الأحمر وهو في طريقه إلى الرايخ الثالث بارتكاب ما وصفت بأنها أكبرُ عمليّة اغتصابٍ جماعيّ في التاريخ، إذ اغتُصبت أكثر من نصف مليون امرأةٍ ألمانية. وبعضهنّ تعرّضن للاغتصاب أكثر من (70) مرّة، وذلك حسب مؤرّخين روس لا ألمان.

فهل نحن إرهابيون؟

لقد دخل صلاحُ الدين الأيوبيّ القدسَ محرّرًا، بعدَ أن ارتكبَ فيها الصليبيّون أبشعَ المجازر بحقّ أهلها، فقتلوا أكثر من سبعينَ ألفًا وحولوَّا المسجدَ الأقصى إلى مربطٍ للخيول وحظيرةٍ للخنازير. فأمّن صلاحُ الدين كنائسَ النّصارى وتركَ قساوستَهم يُديرون شؤونَها ولم ينتقم ولم يقتل ولم يأخذ أحدًا بجريرةِ أحد.

فهل نحن إرهابيون؟

لقد احتلّت فرنسا شمالي أفريقيا وقتلت من الجزائريّين الملايين. وما زالت إلى اليوم تحتفظ بجماجم الآلاف في متحفها الوطنيّ بباريس للفُرجة مُقابلَ رسوم ماليّة.

ونحن حتى في جاهليّتنا التي يعيّروننا بها وخلال أربعين عامًا من الحرب الدائرة بين بكر وتغلب

قُتِل (100) رجل طوال الحرب، حتّى إنّ الدّية التي فُرِضَت وقتَ الصُّلح كانت ألفَ ناقة. مئةُ رجلٍ ليس بينهم طفلٌ واحد.

فمن هم الجاهليون ومن هم التقدُّميّون؟

ولا تتصوّر _يا رعاك الله_ أنّ عدد قتلى العرب منذ وُجِدَ العرب، والمسلمين منذ جاء الإسلام وإلى اليوم قد تجاوز عددَ قتلى عامٍ واحدٍ من حرب الثلاثين عامًا التي وقعت في أوروبّا.

فهلْ نحن إرهابيون؟

إنّ أكثرَ حروب التاريخ كلفةً ودمويّة هي:

الحرب العالمية الثانية والتي ليس في أحد طرفَيها عربٌ ولا مسلمون.

والحربُ العالمية الأولى التي ليس في أحد طرفَيها عربٌ ولا مسلمون.

والحربُ الأهليّة الصينيّةُ التي ذهب ضحيَّتَها أكثرُ من (20) مليون إنسان وليس في أحد طرفَيها عربٌ ولا مسلمون.

والحرب الأهليّة الروسيّة بين عامي 1917 و 1921 والتي ذهب ضحيَّتَها الملايينُ وليس في أحد طرفَيها عربٌ ولا مسلمون.

وحرب الثلاثينَ عامًا في أوروبّا في القرن السابع عشر.

ثمّ حربُ المئةِ عام بين فرنسا وبريطانيا، وحربُ الثلاثِ ممالك التي وقعَت في الصين وذهب ضحيّتَها أكثرُ من (30) مليون إنسان.

كلّ هذه ليس في أحد طرفيها عربٌ ولا مسلمون.

فهل نحن الإرهابيون؟

نحن لسنا متخلّفين، المتخلّفون هم الحضاريّون في بلادهم والمستعمرون والقتَلةُ في بلادٍ أخرى.

ولسنا العالمَ الثّالث، العالمُ الثّالثُ هم الذين احتلّوا الرّقمَ الأوّلَ بالنّار والبارود قبْلَ العِلمِ والسّلام.

ولسنا إرهابيّين، الإرهابيّون هم الذين خلقوا في قلبِ كلّ واحدٍ منّا ردَّ فِعلٍ على الظّلم والإرهاب.

كتب المؤرّخ الجورجي (روي ميدفيديف) ورقةً بحثيّةً نُشِرت في شهر شباط/فبراير من سنة 1989 أيْ قَبْلَ سقوط الاتحاد السوفياتي بعامَين.

جاء فيها أن التقديرات تشير إلى أنّ عددَ القتلى مِنَ المدنيّين الذين قُتِلوا أثناء حكم ستالين بلغ 20 مليونًا، نصفهم تقريبًا من فلّاحي أوكرانيا الذين رفضوا أن يعطوا القمح دون مقابل.

ويحدّثنا التاريخ عن خليفةٍ مسلم اشترى دارَ امرأةٍ ذمّيّة بجوار المسجد لكي يستطيع توسعتَه. ثمَّ تمثَّل الشيخ هاشم بهذه الأبيات:

حكمنا فكان العدل منا سجيّةً
فلما حكمتم سال بالدّمِ أبطحُ
وحلّلتمُ قتْلَ الأســارى ورُبّما
حنَوناعلىالأسرىنَمُنّونصفحُ
فحســبُكمُ هذا التّفاوتُ بينَنا
وكُلُّ إناءٍ بالــذي فيه ينضحُ

فرغ الشيخ هاشم من كلامه، فكان ما قال يوزَنُ بالذَّهب، ورأينا الرِّضا في عينَي كمال ووجهه، حتّى لم يزدْ أحدُنا على ما قال الشيخ هاشم كلمةً واحدةً، ولا كمال ذاتُه.

ولكنّ ذلك لم يمنع (كمال) بعد قليل من سؤال الشيخ هاشم:

كلامُنا كان عن الإسلام الذي دخل في السياسة وعن المسلمين الذين آمنوا بهذا التدخّل، فلماذا شملت العربَ إلى جانب المسلمين في حديثك؟

وإذا كنتَ تقولُ بعدم إسلام هؤلاء الذين يجلدون ظهورنا صباحَ مساء، أفلَيسوا عربًا؟

أجاب الشيخ هاشم:

هؤلاء يا صديقي خارج نطاق العروبة والإسلام، فلا هم بحميّةِ الجاهليةِ ولا بأخلاق الإسلام، ولا هم بنخوةِ العرب ولا بِنُبلِ المسلمين، هؤلاء أدواتٌ قذرةٌ في أيدي مُشغّليها.

هنا انطلق صوتُ مصطفى الجميل، فغنّى هذه الأبيات:

كانَ في الجُبِّ والقميصُ مُدَمّى
غير أنّ الفــؤادَ يحملُ نجْما
لم يكنْ في فؤادِ (يوسفَ) يأسٌ
إنّ عنــدَ النبيِّ ما هو أســمى
أمَلٌ بعد سُــنبلاتٍ عِجــافٍ
ســوفَ يخضرُّ ثمّ يُثمرُ حزْما

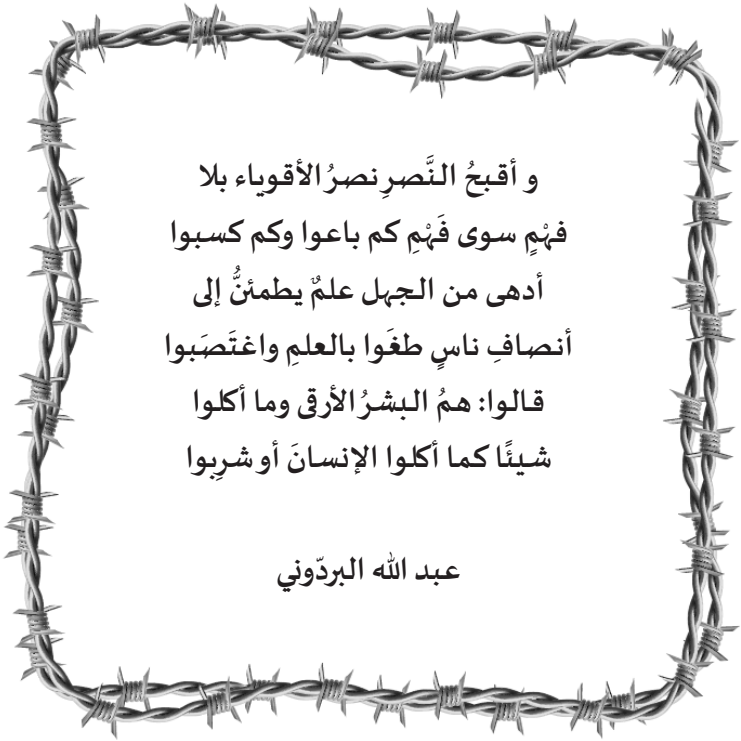
و أقبحُ النَّصرِ نصرُ الأقوياء بلا
فهْمٍ سوى فَهْمِ كم باعوا وكم كسبوا
أدهى من الجهل علمٌ يطمئنُّ إلى
أنصافِ ناسٍ طغَوا بالعلمِ واغتَصَبوا
قالوا: همُ البشرُ الأرقى وما أكلوا
شيئًا كما أكلوا الإنسانَ أو شرِبوا
عبد الله البردّوني

الباستيل

لفتَتِ انتباهي ابتسامةُ عبّاس التي تُخفي خَلْفَها الكثيرَ من الكلام.

وعندما سألته عن سبب ابتسامته قال:

ـ تذكّرتُ رسالةَ الوزير الفرنسي (ماليسرب) إلى مدير سجن الباستيل يقول فيها: «لا ينبغي أبدًا حرمانُ السجناءِ من الكتابة والقراءة، يجب علينا أن لا نرفضَ رغبةَ من يريدون مراسلةَ عائلاتهم من السّجناء».

الكتابةُ والقراءة، وليس الماءَ والهواء!

ضحكَ عبّاس وضحكنا جميعًا، وهو الضّحكُ الذي يضجُّ بالحسرة.

قلتُ: من أجل الباستيل الذي كان فيه ثمانون سجينًا _ كما سمعت _ قامت ثورة، فكم ثورةً يجب أن تقومَ في هذا البلدِ الذي أصبحَ برمّته سجنًا كبيرًا؟

قال عبّاس: نعم، ففي الرابع عشر من تموز/يوليو سنة 1789، قام ثمانية آلاف متمرّدٍ فرنسيّ باقتحام سجن الباستيل. الاقتحام الذي سيكون فاتحةَ الثَّورةِ الفرنسيّة الكبرى وشرارتَها الأولى. الثورة الفرنسيّة التي ستغيّر وجهَ فرنسا خصوصًا وأوروبا عمومًا.

سجن الباستيل الذي بُنيَ حصنًا للدفاع عن حدود فرنسا الشماليّة في حرب المئة عام، التي نشبت بين بريطانيا وفرنسا وراح ضحيّتَها الملايين. ومن ثَمّ تحوّل إلى سجن للمعارضين السياسيين والدينيّين لملوك فرنسا نهايةً بلويس السادس عشر الذي قامت الثورة الفرنسية ضدَّه.

وتأكيدًا لكلامك: حتى قيام الثورة الفرنسية واقتحام سجن الباستيل كان عددُ نُزَلاء سجن الباستيل لا يتجاوز المئاتِ، وفي روايةٍ ثمانين رجلًا.

انكفَأتُ على نفسي مُسنِدًا ظهري إلى الجدار، واضِعًا رأسي بين رُكبتَيّ المرفوعتَين، مستحضِرًا عباراتٍ كان يقولها مصطفى خليفة بصوتٍ مسموعٍ قبل أن يغادرَنا إلى مهجعٍ آخَر، وكأنّه كان يقولها ويعيدها غيرَ مرَّةٍ ليحفظها جيّدًا، ولتكونَ سُطورًا في روايةٍ أو قصّةٍ سيكتبها مستقبَلًا.

فكان يقول:

ـ «مؤلمٌ جدًّا موقف ذلك الرجل الذي انتحر وذهب إلى الموت، بعدما كان يعيش داخلَ الموتِ أصلًا».

وكان يقول:

«في السجن الصحراويّ، سيتساوى لديك الموتُ والحياة، وفي لحظاتٍ يصبحُ الموتُ أمنية».

وكان يقول:

«فمي مطبق، لا يُفتحُ إلا أثناء الطعام، أحسّ أنّ لساني بدأ يصدأ».

كما استحضرتُ قولًا لمعتقَلٍ سابقٍ في سجون جمال عبدالناصر، إذ كان يقول: «الموت، كنّا نعايشه ونخافه ونتمنّاه ونتنفّسه ونألفه».

اِلتفتَ إليّ حمّود وكأنّه كان يسمع ما أقولُ في نفسي، فقال: **كأنّنا قد خُلِقْنا هنا، حتى انتسخَتْ من ذاكرتنا أحداثٌ عشناها، وانمسحت ذكرياتٌ كنّا نظنُّ أنّها لا تُنسى. صرنا كأنّنا قِطَعٌ من جدار السِّجن، وصارتْ حياتُنا قطعةً من شريط الحياةِ هنا وحَسب.**

قلتُ له: لَيتَه كان ذلك يا صديقي، ولكنَّ هناك ما هو أمَرّ. ألم تسمع قَولَ المنفلوطي رحمه الله: «إنّ الإنسان لا يعجز عن احتمال الشَّقاء الدائم، ولكنّه يعجز عن احتمال السَّعادة المسلوبة»؟

في هذه الأثناء، كان صديقُنا مصطفى يتغنّى بأبياتٍ عن الشّهيد، بعد أن أعدموا أربعةً من رفاقِنا اليومَ دُفعةً واحدة. لم نسمع صوتَ باب الزنزانة (25) وهو يُفتَح ويُغلَق هذه المَرّة، فقد سمعنا فيما بعدَ ذلك أنّهم جاؤوا بهم من خارج السِّجن وأعدموهم مباشرةً.

كان مصطفى يغنّي:

رفعــوكَ فارتفَعــوا لأنّــكَ أعلــى
مَــن كان مثلَــك لا يمــوتُ وكَلّا

يتوضّــؤونَ بلمســةٍ أو نســمةٍ
إنّ الــذي بــكَ قــد توضّــأَ.. صلّى

علّمتَنــا يــومَ الشّــهادةِ أنّنــا
كنّــا نُعاقِــرُ فــي السّــلامةِ جَهــلا

علّمتنــا أنّ اقْتحامــةَ عاشــقٍ
ســتُطيلُ عُمْــرًا أو تطــاوِلُ نَخْــلا

وبــأنّ هذا المــوتَ كان ولــم يزلْ
لغــزًا وأنّــكَ كنــتَ أنــتَ الحَــلّا

البعوضُ هنا، لا يتركُ لذي حالٍ حالًا ولا لذي مقالٍ مقالًا، فقد وصلَ الأمرُ بناجي إلى أن قالَ: في أحيانٍ كثيرة، أفضّلُ التنفُّسَ على أن نبقى في المهجع تحت رحمة البعوض الذي لا يرحَم. والتنفُّسُ هنا كما قُلتُ في مكانٍ آخَر: ليس له من اسمه إلّا تنفُّس النّار.

حالةُ (عطا) تزدادُ سوءًا ساعةً بعدَ ساعة، حتّى إنّ أنّاتِهِ صارتْ تتحوّلُ أحيانًا إلى صرخات.

وصار نصف ما عندَ الطبيب قاسم من حبّات الباراسيتامول المُسكّنة يُصرَفُ لِـ(عطا)، وكان بعض زملائنا في السّجن يحتجّون على ذلك خُفْيةً، ولكنّهم صاروا يتغاضَونَ عن الأمر مع اشتداد ألَمِ (عطا) وازديادِ حالته سوءًا.

وأمّا حمّود فكان يقول له: بما أنّكَ تُضرَبُ هنا وهناك، ويؤلِمُكَ رأسُكَ هنا وهناك، وتتوعَّكُ هنا وهناك، فحاولْ أنْ تنسى نفسَك هنا، إذْ إنّنا لا نملكُ شيئًا من أمركَ هناك ولا أنتَ كذلك.

وكنتُ أقفُ بنفسي على كلمات حمّود التي تحملُ في طيّاتها ألمًا أكثر من الألم البادي عليها ذاتها. وأفكِرُ في القهرِ الذي يوصِلُ أحدَنا إلى نسيانِ نفسِه أو تناسيها وهيَ نفسُه. ولكنّني سُرعان ما كنتُ أُسَكِّنُ نفسي ببيتَين من قصيدة تدمريّةٍ لأخينا بكري بدويّة، حفظناها منه أنا وأخي براء سرّاج:

رَبّــاهُ عُدنــا نرتجـــــــي
رُحمــاكَ فامنُــن يــا غفورْ
فلَنــا تـــــــرقُّ وتشــتكي
صُــمُّ الحجــارةِ والصُّخــورْ

حتّى إنّ براء كان يقول لي: «اتّخذتُ هذَين البيتَين دعاءَ رَكعتَي الشَّهادة في مواجهة الموت المتكرّر لعام 1989».

وأمّا لماذا هذا العامُ بالذّات؟

فلأنّه من أسوأ الأعوام التي مرّتْ علينا في سجن تدمر، فقد كان هذا العامُ سلسلةً قاسيةً من التعذيبِ والتجويع والإعدامات، ولا ننسى يومًا من أيّامه، مرَّ علينا كأنّه قطعةٌ من نار جهنّم، ذُقنا فيه صنوفَ القهر والقتلِ والضّربِ والجلد والإهانة، فقد كان يومَ موتِ الخمينيّ.

ضاقَتْ فلمّا استحكَمَتْ حلَقاتُها ...
فُرِجَت وكنتُ أظنُّها لا تُفرَجُ
الشافعيّ

فلمّا استحكَمَتْ
حلقاتُها

لا أدري إن كان مهجعُنا قد تميّز عن غيره بالكفاءات والتحصيل العلميّ العالي والشعراء والمهتمّين بالشِّعر، أو أنّ كلَّ المهاجع كمهجعنا، إذ إنّني منذ عشر سنوات لم أغادر هذا المهجع، وكأنّني قطعةٌ من أثاثه البالي أو جداره السّميك.

وعلى كلِّ حالٍ فهؤلاء عيّنةٌ من خصوم الأنظمة الفاسدة والمستبدّين، كلُّهم أساتذةٌ في اختصاصاتهم ومهندسون وأطبّاءُ وطلبةُ علم شرعيّ.. وهل يعادي المستبدّون إلّا هؤلاء؟ وهل يسجنُ الطّغاةُ إلّا الناجحين؟ وهل يُعتَقَلُ في بلادنا إلّا المفكّرون وأصحابُ الرأي والكلمة؟

وحتّى (عطا) قليلُ الكلام كثيرُ الألَم سمعتُه اليومَ وهو يغنّي أبياتًا شرَحتْ صدري على ما فيها من حسرة، ورمَّمت قلبي على ما فيه وفيها من انكسار، سمعتُه ينشدُ هذه الأبيات وهو يهمُّ بالوضوء:

كبيرٌ فــوقَ صبري واحتمالي
كبيــرٌ أنــتَ يا قهــرَ الرّجالِ

وكنــتُ أقــول للدُّنيــا إذا ما
أتتنــي بالمصائــبِ: لا أُبالي
فكانَ فِراقُ مــن يهواهُ قلبي
أشــدَّ عليَّ مِــن وقْــعِ النِّبالِ
ولكنّــي أصبِّــرُهُ بِــرَبٍّ
رمَيتُ على محامِلــهِ حِمالي

قلتُ له: تاللهِ تفتأُ تذكُرُ رِضا؟

قال: وكيفَ أنساه؟

كان أكثرَ مِن نِصفي الذي فيه قلبي، ومن رأسي الذي فيه عقلي، ومِن قلبي الذي فيهِ حُبّي.

كان قبلَ أن يقتلوه كلَّ شيء، فلمّا قتلوه قتلوا كُلَّ شيء.

وأمّا عن قولكَ: تاللهِ تفتأُ.. فأنا في حُزن يعقوب وحنين يوسف، إلّا أنّ يعقوبَ كان على وعدٍ مع قميص يوسف، ويوسفُ كان على وعدٍ مع الجلوسِ على عرشِ مصر، ولستُ إلّا على وعدٍ مع مشنقةٍ تُنصَبُ لي غدًا أو بعْدَ غد.

قال الشيخ هاشم الذي كان يسمعُ تحاوُرَنا: لم يكن يعلمُ يعقوبُ أنّه سيجتمع بيوسف، ولم يكن يوسفُ يعلمُ أنّ اللهَ سيأتي إليه بأهله من البَدوِ بعد أن نزغَ الشيطانُ بينه وبين إخوته، ولكنّ اليقينَ القويَّ بالله في قلبَيهما كلَيهما، هو الذي صبّرَهما على مُرِّ الفراقِ والفَقد.

والأعلى من اليقين هو هذا التفويض الكامل، فكأّنّ سيّدَنا يعقوب يقول: «يا ربّ، ليس لي من الأمر شيء، وقد فوَّضتُ إليك جميعَ أمري».

قال الطبيب قاسم: أسمعُ كلامًا عن فَرطِ مهجعنا (ترحيله)، فهل سمعتم شيئًا من هذا؟

صارت عيونُنا تتحرّك في محاجرها، وصار أحدُنا ينظر عن يمينه وشماله.

ـ معقول؟!

ـ قاسم: هكذا سمعت عندما ذهبت لتسلّم الدواء من إدارة السِّجن.

حاولَ كلُّ واحدٍ منّا أن يتناسى كلامَ قاسم ويتجاوزه إلى موضوعٍ آخَر، فالحديث عن فرطِ المهجع هو إيغالٌ في الهَمّ لا أكثر. إذ إنّ الحديث عنه هو حديثٌ عن مزيدٍ من الفراقِ والفَقدِ والسِّجنِ الجديد، وإنْ كُنّا نعرفُ حقَّ المعرفةِ أنّ ذلك اليومَ قادمٌ وعلى مهجعنا خاصّة بعد أن لم يبقَ فيه إلّا نحن الذين لا نزيد على أصابعِ أيدي رجُلَين.

باستثناء الشيخ هاشم الذي قال:

كَبُرَتْ هُمومي غيرَ أنّي كُلَّما ... كَبُرَتْ أقولُ لها: إلهي أكبَرُ

لكنّ ناجي قال:

طبيعيٌّ أن يرحِّلوا المهجع، وهل كنتم تتصوّرون أن يُبقوا علينا هنا فعلًا؟

هل كنتم تتصوّرون أن يتركونا ننامُ كالبشرِ ونتنفّسُ كالبشر ونغسلُ وجوهَنا كالبشر ونشربُ الشّايَ كالبشر؟

هل كنتم تتصوّرون أن يعرفوا أنّنا ننامُ نومًا طبيعيًّا، وأنّ أحدنا لا يركلُ وجهَ زميله خلالَ النوم عشرَ مرّاتٍ ولا يتحرّكون لمعالجة هذا الأمر؟

بل وتقبَّلوها منّي يا أصدقائي، وقولوا: إنّ الخوفَ جعلَ ناجي يهذي ويخرِّف ..

منذ قلَّصوا عددَنا هنا، وأنا أنظر إلى مهجعنا على أنّه النسخة الثانية من الزنزانة (25)، وأنّنا لسنا من ساكني هذا المهجع بقَدْر ما نحنُ خِرافٌ مصفوفةٌ للذَّبح، وأنّنا في طابورٍ ننتظرُ موتَنَا الأقربَ إلينا من كلِّ المهاجع.

أمّا حمّود فصار يتلمَّسُ جدارَ المهجع بيدَيه، ويمرّرُ أصابعَه فوقَ حروفٍ كان يحفرُها بإبرةٍ وقعتَ في يده منذ مُدَّة:

(ضاقتْ فلمّا استَحكَمَت حلَ ...

ثمّ قال: يعني أريد أن أفهم منك يا ناجي، بظنّك أستطيعُ أن أُكمِلَ بيتَ الشِّعر هذا أم لا؟

قال الشيخ هاشم: ستُفرَجُ إن شاءَ الله.

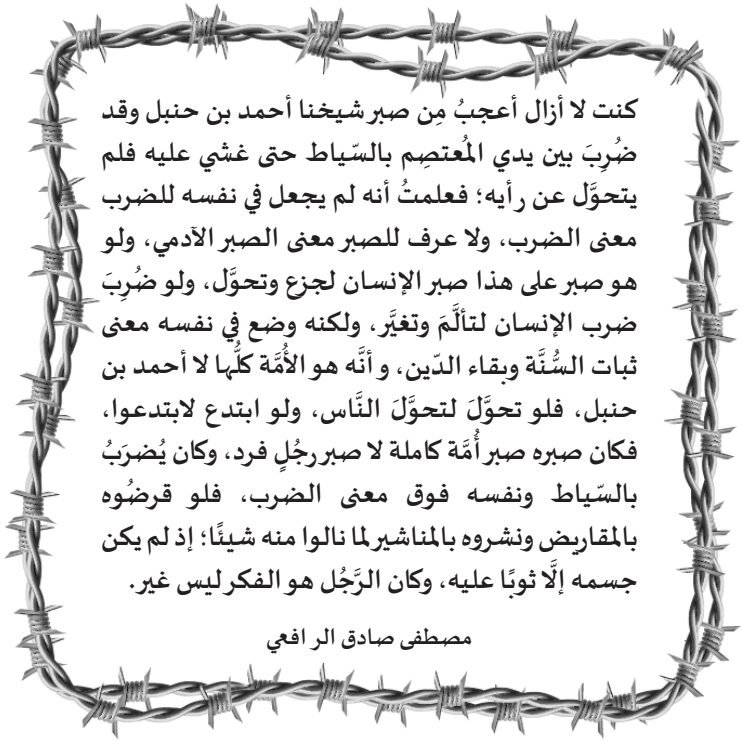

كنت لا أزال أعجبُ مِن صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضُرِبَ بين يدي المُعتصِم بالسّياط حتى غشي عليه فلم يتحوَّل عن رأيه؛ فعلمتُ أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي، ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لجزع وتحوَّل، ولو ضُرِبَ ضرب الإنسان لتألَّمَ وتغيَّر، ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السُّنَّة وبقاء الدّين، و أنَّه هو الأُمَّة كلُّها لا أحمد بن حنبل، فلو تحوَّلَ لتحوَّلَ النَّاس، ولو ابتدع لابتدعوا، فكان صبره صبر أُمَّة كاملة لا صبر رجُلٍ فرد، وكان يُضرَبُ بالسّياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضُوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئًا؛ إذ لم يكن جسمه إلَّا ثوبًا عليه، وكان الرَّجُل هو الفكر ليس غير.

مصطفى صادق الرافعي

أحمد بن حنبل

يا ربَّ أعوادِ المشانقِ قُلْ لها:
أن لا تقومَ على دَمِ الشُّــرَفاءِ
أيَكونُ للطُّغيــانِ حُلْوُ حياتِنا
ونصيبُنا منها دَم الشّــهداءِ؟

هذان البَيتان، كان يتغنّى بهما مصطفى ونحن نودّع صديقَينا إلى الموت.

أجل، اليوم غادرنا عثمان صبحي عثمان وهيثم حدّاد، غادرانا إلى الزنزانة (25)، بعد أن أذاع اسمَيهما رقيبٌ جديدٌ على السّجن، دخلَ مهجعَنا قبلَ شروقِ الشمس.

في هذه الأثناء تتحسّسُ بقلبكَ لا بيديك معنى أن يكون كلُّ شيءٍ على حافّةِ الموت!

وكيف يكون الهواءُ _ وهو هواء _ مقهورًا!

عندما يدخل إلى رئتَيك ولا تتنفّسه، أو تتنفّسه ولا يكفيك.

صرنا على يقينٍ من ترحيلِ المهجع، ولكنْ إلى الآخرة لا إلى مهاجع أُخرى.

صديقُنا براء طلب أن يُنقَلَ مكانُ نَومه إلى مكان صديقنا معاذ (مهندس من دمشق)، والذي أُخلِي سبيلُه قبلَ يومَين مع خمسمئة سجين دُفعةً واحدة.

قال براء: طلبت الانتقال إلى مكانه تيمُّنًا باللَّحاق به، مع أنّ مكاني الجديد هو تحت فتحة السقف (الشرّاقة) التي لا أضمن لنفسي هنا من أن يأتي العسكريّ يومًا ما ويبول عليّ من هذه الفتحة.

ما رأيكم أن ننشد قليلًا؟ أحسّ أنّ أنفاسي تختنق.. قال براء.

وفعلًا؛ صرنا ننشد أنشودةً جماعيّةً مسلّيةً بعد هذا الضّيق.

الصلاةُ على المُظَلَّلْ بالغمامة

خيرِ خلْقِ اللهِ شرّف أرضَ (رامة)

كان ناصر يدندن معنا وينغّمُ بالرغم من كلّ ما فيه من ألَم، فهو منذ أسبوع وحتّى اليوم يبولُ دمًا، بعَد أن قامَ خنزيران بِرَميِهِ داخلَ بابِ المهجع شِبهَ ميّت.

مضت عليه أربعُ ساعاتٍ وهو لا يبصرُ بعينيه، بعد حفلةِ تعذيبٍ استمرّت عليه وحده مُدّةَ عشرين دقيقة، وكلُّ ذلك لأنّه لم يعترف لأحد عناصر الشرطة العسكريّة عن الذي سعَلَ سعْلةً عابرةً في المهجع، وظنّه الشرطيُّ أنّه بصَق.

ناصر العاصي من إحدى قرى جبل الزاوية في ريف إدلب، كان يدرسُ في الثانويّة الشرعيّة، واعتقلته المخابراتُ السوريّةُ هو ووالده، اقتادوهم إلى فرع الأمن العسكريّ بإدلب، وبعد ثلاثة أشهر من التحقيق والتعذيب، جاؤوا بهما إلى سجن تدمر.

أمّا والدُه فكان من بين مئَتي شخص تمّ إعدامُهم دفعةً واحدةً في الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1983.

كان يحدّثني عن تيسير هزبر، عالم الذرّة الذي جاؤوا به إلى المنفردة، وعن حسن زينو مِن حماَة (بروفيسور في علوم الجيولوجيا)، والذي قلعوا له عينَه.

كما كان يحدّثني عن الأيّام القاسية الثقيلةِ التي تلَت إعدامَ والده، وكيف كان يتكوّرُ على نفسه في زاوية المهجع تحت بطانيّته، وكيف كان يشعرُ بغصّةٍ في حَلقِه لا تفارقه، وكيف كان يتضايق من أيِّ أخٍ له في المهجع يضحك أو يبتسم مُجرّدَ ابتسامة.

ـ ناصر كان كثير الكلام عن تثبيتِ اللهِ عزّ وجلَّ له ولنا في السِّجن، وكثيرًا ما كاَن يتغنّى بأبياتٍ من الشِّعر تصبِّره وتصبِّرُنا. توزّعتْ آلامُه على المهاجع الثاني والسابع عشر ثمّ الثّامن.

كان يقول لي: أشعرُ بلُطفِ اللهِ ومعيّته في كلِّ لحظةٍ من لحظاتي في هذا القبر، وإلّا فَمِن أينَ لي وأنا الضعيفُ المُنهَك أن أحتملَ كلَّ هذا القهر، وأن أحتملَ خروجَ نفسي إلى الإعدام (يعني والدَه)، ثمّ أَبقى على قَيدِ الحياة؟

تذكّرتُ حينها قولًا لمصطفى صادق الرافعيّ رحمه الله، في أحمد بن حنبلَ (رضي الله عنه) وصبرِه، إذ يقول:

«كنت لا أزال أعجبُ مِن صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضُرِبَ بين يدي المُعتصِم بالسّياط حتى غُشي عليه فلم يتحوَّل عن رأيه؛ فعلمتُ أنّه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي، ولو هو صبَرَ على هذا صبْرَ الإنسان لجزع وتحوَّل، ولو ضُرِبَ ضرب الإنسان لتألَّمَ وتغيَّر، ولكنه وضع في نفسه معنى ثباتِ السُّنَّة وبقاء الدّين، وأنَّه هو الأُمَّة كلها لا أحمد بن حنبل، فلو تحوَّلَ لتحوَّلَ النَّاس، ولو ابتدع لابتدعوا، فكان صبره صبر أُمَّة كاملة لا صبر رجُلٍ فرد، وكان يُضرَبُ بالسّياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضُوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئًا؛ إذ لم يكن جسمه إلّا ثوبًا عليه، وكان الرَّجُل هو الفكر ليس غير».

عاد بعدها ناصر إلى أغنيته المفضَّلة في السجن، والتي يكاد يكرّرها كلَّ يوم، وكأنّ لها في كلِّ يوم معنىً جديدًا في نفسِه هو بالذّات، والقصيدةُ المُغنّاة هي لشابٍّ من حلب، اسمُه سيف الدين الكاتب:

جَلجِلْ بنداءِ القرآنِ
وازأَرْ يا شِبلَ الإسلام
أعلِنْها صرخةَ إيمانِ
سندُكُّ عروشَ الطغيانِ

.....

ديني أنا دينُ الحُرّيّةْ
والمُنقِذُ للإنسانيّةْ
بشريعتِنا الإسلاميّةْ
سنُحرِّرُ كلَّ الأوطانِ

....

اضطهِدوا شِيبي وشَبابي
واعتقِلوا حتّى أصحابي
أو سُوموني سُوءَ عَذابي
لكنْ لن أخضعَ كَجَبانِ

....

السِّجنُ لإخواني خَلوَةْ
ومُعسكَرُ صبْرٍ وفُتوّةْ
والمِحنةُ زادَتنا قُوَّةْ
واستِمساكًا بالقُرآنِ

....

أعـوادُ مشانقهم شهِدَتْ
آلاف الشّهداءِ انطلَقَتْ
لمّا شُدَّ الحَبلُ ابتسمَتْ
فـرَحًـا بـلـقـاءِ الـرّحـمـنِ

....

الظُّلمُ وإنْ صـالَ وجالا
وظـلامُ اللَّيلِ وإنْ طالا
سـنـظلُّ نُـعِـدُّ الأجـيـالا
لـصـبـاحٍ يغمرُ شُطآني

....

شِبلي سيظلُّ يُلاحقُكم
مُقتَحِمًا كُـلَّ مواقِعِكم
حتّى يستأصِلَ شأفتَكم
ثَــأْرًا لِـدمـاءِ الـشُّـبّـانِ

....

قُـلْ لـلـحُـكّـام الـعُـمَـلاءِ
أنـا شِـبـلُ جـهـادٍ وفِـداءِ
ســأُروّي أرضـي بدمائي
وأُحـــرِّرُ منكم أوطـانـي

....

قُـلْ للطّاغيةِ الـثَّـرثـارِ
لـن تحلُمَ يـومًـا بِـفِـرارِ
وسنُطعِمُ عَـرشَـكَ للنّارِ
ونُطيحُ بفِرعَونَ الثاني
....
يا رأسَ الحزبِ الكَذّابِ
أَحـكِـمْ إغـلاقَ الأبـوابِ
وأَحِـطْ أسـوارَكَ بكلابِ
قد جـاءكَ شِبلُ الإيمانِ

إيّاكَ وظُلمَ مَن لا يجِدُ عليكَ ناصرًا إلّا الله

علي بن الحسين رضي الله عنه

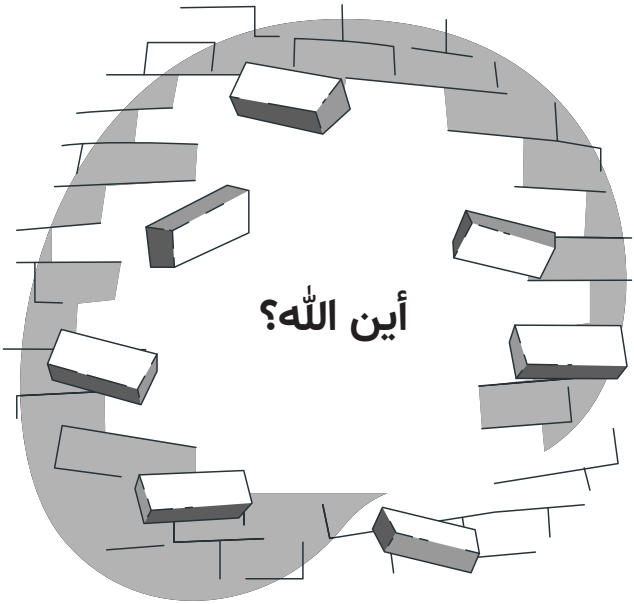
أين الله؟

القادمون جماعةً وفرادى
والحاملون على الرؤوس بلادا
والعابرون كصوتِ مئذنةٍ يمرُّ ... يمرُّ
لكنْ يُشعِلُ العُبّادا
مع كلِّ ما فينا وفينا، إنّهم
يعشَوشِبون على المدى كبّادا
يتسمَّرون إذا تنمَّرَ خَصمُهم
مثلَ الشِّدادِ الراسياتِ شِدادا
حملوا على أكتافِهم أسماءَهم
حتّى يُؤَوِّلَها الزّمانُ جيادا
ما عاشَ مَن عاشَ الطُّغاةُ ولم يقُلْ:
لا للطُّغاةِ، تمرُّدًا وعِنادا
فالمَوتُ كلُّ الموتِ أهوَنُ مِن دَمٍ
حُرٍّ يُراقُ سُدىً ولا يتمادى

أبياتٌ غنّاها حمّود صبيحةَ هذا اليوم، ونحن نودّع مصطفى إلى الزنزانة (25).

أجل، مصطفى، كلّ مصطفى.. بكُلِّ ما فيه من الحُبِّ والأمَلِ والحياةِ والتفاؤلِ والحيويّةِ والحركة والبساطةِ.

فلقد كانت الساعةُ الخامسةَ قهرًا بتوقيتِ البوطِ العسكريّ، عندما رفَسَ بابَ المهجع بمكسورتِه عريفٌ برتبة شيطان، وصرخ بأعلى صوته: مصطفى، على الـ(25).

تسمَّرتِ العيونُ في الأحداق، وتعرَّقَتِ القلوب، ووقفت الأنفاسُ في منتصف الطريق، وأمّا عن مصطفى فقد كان في عالَم آخَرَ على ما يبدو. قامَ يُلَملِمُ أحلامَه بكُلِّ هدوء، دونَ أن يتبرَّمَ أو يتضجَّرَ أو يتكلّم.

قلتُ في نفسي: أجَل، الشُّهداءُ هم أقَلُّ النّاسِ كلامًا عن حُبِّ الوطن.

اقتربَت لحظةُ خُروجه من المهجع، بعد أن لبسَ بدلةَ الموت، ووقف في وسط المهجع وقال:

لا أريد أن يراني الجلاوزةُ قاعدًا عندما يأتون ليجرّوني إلى الموت، الوقوفُ أفضل، فهو على أقلِّ تقدير، مخرزٌ في أعينهم.

ثمّ قال: مشكلتي مع حَبلِ المشنقة، هو أنّه يبدأُ بحنجرتي، وأنا الذي قال لغَيرِ صديق: **«دارِ حنجرتَكَ مِن السيوف الغائرة في جسدِكَ ما استطعت، حتّى تظلَّ قادرًا على أنْ تقولَ كلمتَكَ الأخيرة ولو في الرَّمقِ الأخير».**

في هذه الأثناء بالذّات، فُتحَ بابُ المهجع، ولكن ليس لسَوقِ مصطفى إلى الزنزانة (25)، ولكن ليذيعَ أحدُ عناصر الشرطة العسكريّة اسمَ كمال، ويُتبعه بقوله: «على بيت أهلك».

إنّه الإفراج عن كمال، أجَل كمال، بكُلِّ ما فيه من التشاؤم والسوداويّةِ واليأسِ والإحباطِ والطيّبةِ بالرغم من كُلِّ ذلك.

اتّجه مصطفى صوبَ كمال، وهو مبتسمٌ مُشرِقُ الوجه، كما لو كان الاسمُ الذي أُذيعَ منذ قليل هو اسمه. ربّتَ بيده على كتِفِ كمال الذي ضجّتْ عيناهُ بدمعتَين كبيرتَين، وقال له:

هل عرفتَ أينَ الله يا صديقي؟ ثمّ تصافحا وتعانقا العِناقَ الأخير.

خرج مصطفى، وسافر وراءَه هواءٌ كنّا نتنفّسه وكان يُنعش قلوبَنا في الليالي الثقيلة على القلوب والأرواح معًا، فإذا كان الصديق الصّدوقُ في وقتِ الرخاءِ جَنّةً، فهو في وقت الضّيقِ جنّتان.

ومع إغلاقِ البابِ وراءه، أُسدِل الستارُ على فصلٍ كبيرٍ كبيرٍ مِن الأُنسِ الكثير الكثير.

كان حمّود ومصطفى كالواحدِ وظلّه، ولقد رأينا بأُمّ أعيننا انسلاخَ الواحدِ عن ظلّهِ اليوم، عندما نظرنا إلى حمّود الذي تركه مصطفى خلفَه.

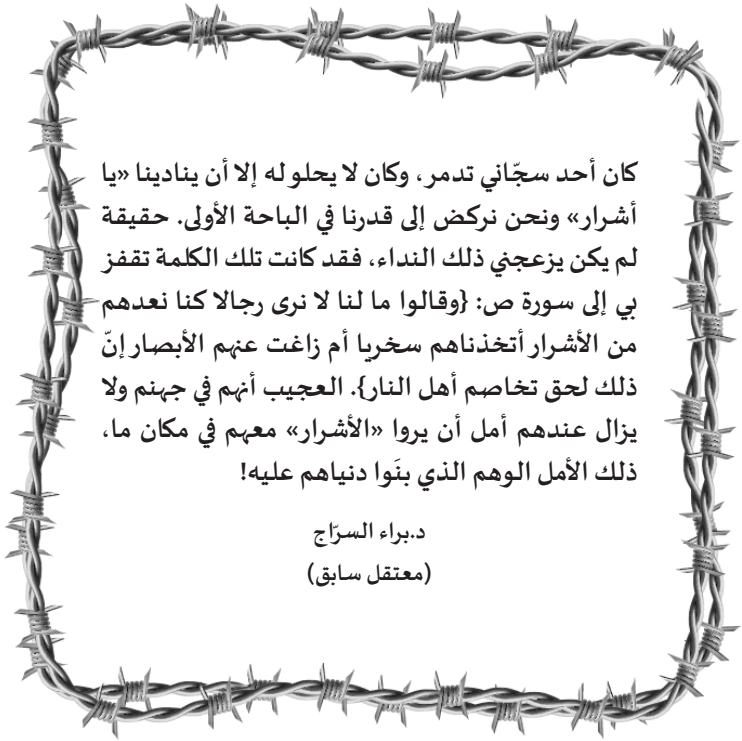

كان أحد سجّاني تدمر، وكان لا يحلو له إلا أن ينادينا «يا أشرار» ونحن نركض إلى قدرنا في الباحة الأولى. حقيقة لم يكن يزعجني ذلك النداء، فقد كانت تلك الكلمة تقفز بي إلى سورة ص: {وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار إنّ ذلك لحق تخاصم أهل النار}. العجيب أنهم في جهنم ولا يزال عندهم أمل أن يروا «الأشرار» معهم في مكان ما، ذلك الأمل الوهم الذي بنَوا دنياهم عليه!

د.براء السرّاج

(معتقل سابق)

الفصل الأخير

في الفصل الأخيرِ من فصول مهجعنا، كان براء يحدّثني _ بصَوتٍ يسمعه القريبُ منّا_ عن آخِرِ أعمالِ قلبه في مهجعٍ يحتضِر، كان يقول لي:

كنتُ ولا زِلتُ من عُشّاق آياتٍ قرآنيّة سمّيتُها «آيات الماء» وإنما هي آيات الأمل!

أَحَبُّها إليَّ في سورة الروم :{فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير}.

ولكم نظرت من شقوق باب المهجع (25) إلى أرض الباحة الثالثة متسائلًا: متى ستُنبِت؟

توقيت الإنبات لم يكن يومًا لبشر.

أمّا من استُشهد هناك فله وعدٌ أيضًا لا يدركه بشر {لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ ممّا يجمعون}.

كان الشيخ هاشم المجذوب رحمه الله يعلّق على الآية قائلًا: انظر إلى الإبهام في «ما» وصيغة الجمع في «يجمعون»، ما وعدهم أفضل من كل ذلك!

ثمّ تابع الشيخ هاشم يحدّثنا عن لطيفةٍ أُخرى من لطائف القرآن الكريم، فقال:

{اقذفيهِ في التابوت}

{فاقذفيه في اليمّ}

{فليُلْقه اليمُّ بالسّاحل}

{يأخذه عدوٌّ لي وعدوٌّ له}

ثمّ قال:

كلُّ هذه التفاصيل المرعبةِ بصيغةِ الأمر كانت موجَّهةً إلى قلبٍ بشريّ رقيق

لم يكن يدري أنّ وراءَ الكواليسِ ما وراءَها. {وألقيتُ عليك محبّةً منّي ولِتصنَعَ على عيني}.

فاللّهمّ يقينًا كهذا اليقين وبردًا على القلبِ كهذا البرد.

لم يكد الشيخ هاشم ينهي حديثَه حتّى فُتِح علينا بابُ المهجع وكأنّه بابٌ من جهنَّم.

نعم، لقد نوديَ على حمّود بصوتٍ كأنّه الصاعقة.

ونعم، لقد جاءَ دورُ حمّود ليذهب إلى الزنزانة (25).

ونعم، فإنّ القتَلةَ لن يهدؤوا حتّى يسلبونا أعزّ ما نملك وأجملَ من نُحِبّ، ويسرقوا من حياتنا أجملَ ما فيها، ثم يتركوها كالرَّماد.

أمّا حمّود، فلم يزد على أن تبسَّمَ ابتسامةَ المؤمن الواثق من قلبِه وإيمانه ومصيره.

اتّجه حمّود إلى المكان الذي ينام فيه، وعاد إليّ ليعطيني الإبرة، وقال لي: أكمِلْ بيتَ الشِّعر، فمن الضروريِّ أن يُكمِلَهُ أحدُنا.

في هذه الأثناء، انفلتَ (عطا) من مكانه وركض باتّجاه فتحة الجدار، بعد أن سمعنا صوتَ باب الزنزانة (25) كالعادة. ركض باتّجاه فتحة الجدار وكأنّه السَّيْل، نظر إلى هناك، وصرخ بأعلى صوته بعد أن أسند ظهره على الجدار: رضاااااااا.

أجل، لقد كان الخارجُ من الزنزانة (25) لتوّه هو أخاه (رضا)، الذي كان يظنّ أنّه مات منذ أربعةَ عشرَ عامًا قضاها هو في هذا السجن، ولكن على ما يبدو أنّ أجله قد حان اليوم، بعد أربعةَ عشرَ سجنًا وفراقًا وموتًا وعذابًا لمرّتين، وقهرًا لمرّتين، وجَلْدًا لمرّتَين.

وأمّا عنّي، فعليَّ من الآنَ فصاعدًا أن أحفرَ في الجدار بإبرة، كما وعليَّ أن أبدأَ بِفاءِ (فُرِجَت).

المُحتَوَيات

الشَّرّاقة	9
الصَّفعَةُ الأُولى	17
لوحُ صابون	25
الهُدهُد	35
ما وراءَ الأبيض والأسود	47
الفراشة	57
في سبيل الرحمن	69
بعْدَ منتصفِ الوَيل	79
عَطا	91
أحَدٌ.. أحَد	101
المجزرة	111
أُحِبُّكَ مرّتَين	125

سورة الرحمن	137
فنُّ الحرب	147
الباستيل	161
فلمّا استحكَمَتْ حلقاتُها	171
أحمد بن حنبل	179
أين الله؟	191
الفصل الأخير	199